الفصل الأول

سياسة الخلفاء الراشدين ﷺ الداخلية من خلال خطبهم

ويشتمل على مدخل ومبحثين :

المبحث الأول : صفات الحاكم المسلم في ضوء سياسة الخلفاء ﷺ مع أنفسهم من خلال خطبهم .

المبحث الثاني : سياسة الخلفاء الراشدين ﷺ الداخلية مع الرعية من خلال خطبهم .

مدخل

إن عصر الخلفاء الراشدين ﷺ عصر مليء بالدروس والعبر، فتاريخهم يقدم الدروس، وينور العقول، ويهذب النفوس، ويشحذ الهمم، ويستفيد منه الحكام والدعاة إلى الله في إعداد جيل مسلم يربى على منهاج النبوة، وهذا من الأهمية بمكان، فاتباع طريقتهم والسير على منهجهم فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. قال عبد الله بن عمر ﷺ: «من كان مستنا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم»[(١)].

وقد حثنا رسول الله ﷺ باتباع سنتهم والاهتداء بهديهم والسير على طريقتهم، فقال ﷺ: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(٢)]. وقال ﷺ فيهم أيضا: «**خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم**»[(٣)].

وقد كان للخلفاء ﷺ سياسة واضحة في حكمهم، سواء كانت هذه السياسة داخلية أو خارجية، حيث قاموا بتطبيق شرع الله على أنفسهم وأهليهم ورعيتهم، ومع غيرهم من غير المسلمين، طبقوا أحكام الإسلام ونشروه في ربوع الأرض،

---

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، (١/ ٣٠٥)(٣٠٦) دار الكتاب العربي، ط الرابعة/ ١٤٠٥هـ.

(٢) رواه أبو داود في سننه، ك السنة، باب في لزوم السنة. (٤/ ٣٢٩) رقم ٤٦٠٩، ورواه الترمذي في سننه، ك العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، (٥/ ٤٤)، رقم ٢٦٧٦، وصححه بن حبان (١/ ١٧٨) رقم ٥.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٤٤٠) رقم ١٩٩٦٧، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فكانت لهم السيادة والقيادة والريادة ، أصبحوا من رعاة للغنم قادة للأمم ، فواجب على الأمة الإسلامية أن تنظر نظرة اتعاظ واعتبار في سيرة هؤلاء الأبرار الأخيار ، وأن يسيروا على دربهم ، وأن يهتدوا بهديهم حتى يرفع الله الغمة عن هذه الأمة ، وتعود الأمة إلى عزها المفقود ومجدها المسلوب ، تعود إلى عزتها وكرامتها وأمنها .

وسأحاول بقدر وسعي وحسب طاقتي أن أبين في هذه الصفحات أهم الصفات التي اتصف بها الخلفاء ﷺ ، والتي يجب أن يتصف بها الحاكم المسلم ، وكيف ساس الخلفاء ﷺ رعيتهم ، وكيف قدموا القدوة من أنفسهم فطبقوا شريعة الإسلام على أنفسهم ، ثم على أهليهم ، ثم على الرعية . كيف فهم الخلفاء الإسلام وعاشوا به في دنيا الناس ، وأثروا به في مجريات الأمور في عصرهم . وقد قمت بتقسيم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : صفات الحاكم المسلم في ضوء سياسة الخلفاء ﷺ مع أنفسهم من خلال خطبهم .

المبحث الثاني : سياسة الخلفاء الراشدين ﷺ الداخلية مع الرعية من خلال خطبهم .

*****

المبحث الأول

صفات الحاكم المسلم ومميزاته في ضوء سياسة الخلفاء ﷺ مع أنفسهم من خلال خطبهم

مدخل

إن المتأمل في سياسة الخلفاء الراشدين ﷺ مع أنفسهم يجد عظمة هؤلاء الخلفاء ، عظماء بإيمانهم وبأخلاقهم ، وبأعمالهم ، وبعلمهم ، وبفكرهم ، عظمة مستمدة من فهمهم وتطبيقهم للإسلام ، وصلتهم القوية بالله عز وجل واتباعهم لسنة رسول الله ﷺ ، لذا كان حري بالأمة الإسلامية قادة وشعبا أن تتأسى بأقوالهم وأعمالهم في هذه الحياة لتنال ما نالوه من رفعة لأنفسهم وعز للإسلام والمسلمين .

فالصحابة رضوان الله عليهم بمن فيهم الخلفاء كانوا مشاعل من نور ، ونجوم من سماء الهدى وضياء الأرض النقي ، ما أفلح من لم يتبع خطاهم ، معلمهم رسول الله ﷺ ، ومن كان معلمه رسول الله ﷺ فهو أحرى أن يتبع . ومن هنا كان من الأهمية بمكان أن ينظر الإنسان في حياتهم فيتعلم منها كيف ساسوا أنفسهم؟ ما هي أهم الجوانب في شخصيتهم؟ والتي يجب أن يتصف بها الحاكم المسلم .

ومن خلال التأمل في خطب الخلفاء وسيرتهم العملية يجد الباحث أنهم قدموا من أنفسهم قدوة للحاكم المسلم ، فقد طبقوا ما يدعون إليه ، وكانوا قدوة للرعية بحالهم قبل مقالهم ، وهذا ما سنتعرف عليه في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى . وسأتحدث في هذا المبحث عن أمرين :

أولا : صفات الحاكم المسلم من خلال خطب الخلفاء .

ثانيا : مميزات الحاكم من خلال خطب الخلفاء .

*****

أولا : صفات الحاكم المسلم
في ضوء سياسة الخلفاء مع أنفسهم من خلال خطبهم

قامت سياسة الخلفاء مع أنفسهم على عدة ركائز ، وهذه صفات يجب أن يتصف بها الحاكم المسلم ، وهي :

١ـ تطبيق الشريعة الإسلامية على أنفسهم والالتزام بها في واقع الحياة :

لقد كان الخلفاء ﷺ مثالا فريدا في متابعة الرسول ﷺ والسير على هداه ، وتطبيق الشريعة الإسلامية على أنفسهم قبل أن يطبقوها على الرعية ، فاتبعوا سنة النبي ﷺ واقتفوا أثره . وهذه من السياسة التي قامت عليها سياسة الخلفاء مع أنفسهم .

ولقد أعلن الخلفاء ﷺ هذه السياسة على الملأ قولا ، وطبقوه عمليا في واقع حياتهم . والمتتبع لخطب الخلفاء ﷺ يجد هذا الأمر واضحا .

فهذا الصديق ﷺ يقول في جزء من خطبته : «إن الله اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات ، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع» [(١)] .

ولما ولي أبو بكر ﷺ خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد ، أيها الناس قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن ، وسن النبي ﷺ السنن فَعَلمنا فَعَمِلنا ، أيها الناس ، إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» [(٢)] .

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥) .

(٢) الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع ، (٣/ ١٨٢، ١٨٣) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط الأولى/ ١٩٦٨م . كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علي بن حسام الدين المتقي الهندي ، رقم ١٤٠٧٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٩م .

وقال الفاروق ﷺ : «ألا إن أصحاب الرأي أعداء السنة . . . . . ألا وإنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ما نضل ما تمسكنا بالأثر» [١] .

وقام ﷺ في الناس فقال :«إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم ، ولست معلمكم إلا بالعمل ، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عرض علي الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وتروووا سعدت ، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت ففرحت قليلا وحزنت طويلا ، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب» [٢] .

وقام عمر في الناس فقال :«إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه ، ومن يتبع السنة وينته إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج[٣] ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه ، وذلك بأن الله ﷻ يقول : ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] [٤] .

وخطب عثمان الناس بعد ما بويع فقال : «أما بعد ، فإني قد حملت وقد قبلت ، ألا وإني متبع ولست بمبتدع» [٥] .

وقال علي : «وعهد إلي رسول الله عهدا فلست أحيد عنه» [٦] . وقال أيضا :«ما كنت لأدع سنة النبي ﷺ لقول أحد» [٧] . وقال أيضا : «ألا وإني لست بنبي ولا

---

(١) خطب الفاروق عمر بن الخطاب صـ ٥٨ .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٥) .

(٣) **طريقٌ نَهْجٌ** : بَيِّنٌ واضِحٌ . لسان العرب (٢ / ٣٨٣) . والمراد الطريق البين الواضح .

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٥) .

(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٦٩٣) .

(٦) جمهرة خطب العرب (١/ ٣٥٣) .

(٧) البداية والنهاية (٥/ ١٤٧) .

يوحى إلي ، ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله حق عليكم طاعتي فيما أحببتم وكرهتم» [١] . وقال أيضا : «كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني» [٢] .

وإن كان الخلفاء قد أعلنوا اتباعهم لرسول الله ﷺ قولا فإنهم طبقوا ذلك في واقع حياتهم حتى قال الصديق : «لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ بِهِ إِلاَّ عَمِلْتُ بِه ، إِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ» [٣] . وقال أيضا :«والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته» [٤] .

فهذا أبو بكر الصديق يتبع النبي ﷺ في كل شيء ، وسأضرب مثالا من حياته العملية على ذلك ، وهو إنفاذه جيش أسامة بن زيد امتثالا لأمر النبي ﷺ رغم معارضة كثير من الصحابة لذلك .

لما تولى أبو بكر ﷺ الخلافة أمر رجلا في اليوم الثالث من وفاة رسول الله وتوليه الخلافة أن ينادى في الناس«ليتم بعث أسامة ، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف [٥] » [٦] .

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٩٢) ، كنز العمال ، رقم ٣٦٣٩٩ ، الشفا للقاضي عياض (٢/ ٥٥٦) .

(٢) رواه أبو داود في سننه ، ك الوتر ، باب في الاستغفار ، (١/ ٥٦١) رقم ١٥٢٣ . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، رقم ١٦٢١ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، ك فرض الخمس ، باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا صدقة ، رقم (٣٠٩٣) ، ومسلم في صحيحه ، ك الجهاد والسير ، باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، رقم (١٧٥٩) .

(٤) رواه البخاري في صحيحه ، ك فرائض ، باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا صدقة ، رقم (٣٠٩٣) ، ومسلم في صحيحه ، ك الجهاد والسير ، باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، رقم (١٧٥٩) .

(٥) موضع قرب مكة . معجم قبائل العرب ، عمر كحالة (٣ / ١٢١٤) ، دار العلم للملايين بيروت ، ط الثانية/ ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

(٦) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٤)(٢٤٥) .

وقام ﷺ في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :«إن الله ﷻ لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها وخطأ ظفرتم به ، وضرائب أديتموها وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم ، ألا إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ولا يصرف عنه به سوءا إلا بطاعته واتباع أمره ، واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وإن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما أنه لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة» [١] .«واقترح بعض أصحاب النبي ﷺ بأن يبقى الجيش فقالوا : إن هؤلاء جل المسلمين والعرب كما ترى قد انتقصت بك فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين» [٢] .

وطلب الصديق من الصحابة أن ينسوا فكرة إلغاء مشروع وضعه رسول الله ﷺ بنفسه ، وبين لهم أنه سينفذ هذا الأمر حتى لو تسبب تنفيذه في احتلال المدينة من قبل الأعراب والمرتدين ، ووقف خطيبا وخاطب الصحابة بحقيقة ما عزم عليه وقال :«والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته» [٣] .

«لقد كان الصديق مصيبا فيما عزم عليه من بعث أسامة مخالفا رأى كثير من الصحابة ؛ لأن في ذلك أمرا من رسول الله ﷺ ، وقد أثبتت الأيام والأحداث سلامة رأيه وصواب قراره الذي اعتزم تنفيذه» [٤] .«وشرح الله صدر الصحابة لذلك ، وتمسكوا بأمر الرسول الكريم ، وبذلوا المستطاع لتحقيقه ، فنصرهم الله

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٥) .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٥) ، البداية والنهاية (٦/ ٣٣٥) .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٥) ، البداية والنهاية (٦/ ٣٣٦) .

(٤) الشورى بين الأصالة والمعاصرة صـ٨٣ .

ورزقهم الغنائم ، وألقى في قلوب الناس هيبتهم وكف عنهم كيدهم وشرهم» [١] .

وتبين من فعل الصديق ﷺ أنه متمسك بأوامر رسول الله ﷺ عاض عليها بالنوجذ ، ومنفذ لها مهما كثرت المخاطر ، وقد ألزم نفسه بذلك ، وقد اتضح هذا من خلال هذه الموقف مرات عدة :

- لما طلب المسلمون إيقاف جيش أسامة نظرا لتغير الأحوال وتدهورها أجاب بمقولة خالدة : «والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته» [٢] .

- لما استأذن أسامة في الرجوع بجيشه من الجرف إلى المدينة خوفا على الصديق وأهل المدن لم يأذن له ، بل أبدى عزمه وتصميمه على تنفيذ قضاء النبي ﷺ بقوله«لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ» [٣] .

- عندما طلب تعين رجل أقدم سنا من أسامة أبدى غضبه الشديد على عمر بسبب جرأته على نقل هذا الاقتراح ، وقال له :«ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه» [٤] .

- اهتمام أبي بكر باتباع النبي ﷺ في خروجه لتشييع الجيش ومشيه مع أسامة الذي كان راكبا ، ولقد كان أبو بكر مقتديا بالنبي ﷺ حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن ،«فلما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته ، فلما فرغ قال : «يا معاذ ، إنك عسى

---

(١) قصة بعث جيش أسامة ، د/ فضل إلهي ، صـ ٣٦ ، دار بن حزم ، بيروت ، ط الثانية/ ١٤١٠هـ ٢٠٠٠م .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٥) ، البداية والنهاية (٦/ ٣٣٦) .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٦) .

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٦) .

أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري » ، فبكى معاذ جشعا[١] لفراق رسول الله ﷺ ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» [٢] . وقد فعل أبو بكر بأسامة مع صغر سنه كما فعل النبي ﷺ مع معاذ ، فقد شيع أبو بكر أسامة ما شيا وأسامة راكبا اقتداء بما فعله رسول الله ﷺ بمعاذ .

• ظهرت عناية أبي بكر ﷺ بالاقتداء بالرسول الكريم ﷺ أيضا في قيامه بتوصية الجيش عند توديعهم ، حيث كان رسول الله ﷺ يوصي الجيوش عند توديعهم . ومعظم ما جاء في وصية أبي بكر لجيش أسامة كان مقتبسا من وصايا النبي ﷺ للجيوش .

فالله ربط نصر الأمة وعزها في اتباع النبي ﷺ والسير على هداه ، والتمسك بسنته ، فمن أطاعه فله التمكين والنصر . وبسبب تنفيذ أوامر الله واتباع أوامر رسوله ﷺ عاد جيش أسامة ظافرا غانما منتصرا بعدما أرهب الروم حتى قال هرقل :«هذا الذي حذرتكم ، فأبيتم أن تقبلوه مني ، قد صارت العرب تأتي مسيرة شهر تغير عليكم ، ثم تخرج من ساعتها ولم تكلم» [٣] . وقالت الروم :«ما بال هؤلاء يموت صاحبهم ثم أغاروا على أرضنا ، وقال العرب : لولم يكن لهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير ما كانوا يريدون أن يفعلوه» [٤] .

أما الفاروق ﷺ فقد كان يتبع خطا الحبيب ﷺ ويضرب لنا أروع الأمثلة في

---

(١) أي : فزعا ، والجشع : الجزع لفراق الإلف . النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٠٤) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٥) رقم ٢٢١٠٥ . وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

(٣)المغازي ، الواقدي ، (٣/ ١١٢٤) ، تحقيق مارسدن جوسن ، عالم الكتب بيروت ، ط الثالثة / ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

(٤) الكامل لأبن الأثير (٢/ ٢٢٧) . قصة بعث جيش إسامة صـ ١٤ .

اتباع السنة والاقتداء برسول الله ﷺ . فقد ثبت أنه«جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك»[(١)] . إنه الاتباع في أجل صوره وأسمى معانيه . وهذا تسليم للشارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيه .

وعن عبد الله بن عمر قال : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**» . قَالَ عُمَرُ : فَوَاللهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْهَا ذَاكِرًا وَلاَ آثِرًا [(٢)] . أي :«لا عامدا ولا مختارا» [(٣)] . وعَنْ عَاتِكَةَ بِنْتِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ امْرَأَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهَا كَانَتْ تَسْتَأْذِنُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَسْكُتُ ، فَتَقُولُ : وَاللهِ لَأَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ تَمْنَعَنِي فَلَا يَمْنَعُهَا[(٤)] . وفي رواية أنها : كانت تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد ، فقيل لها : لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت : وما يمنعه أن ينهاني؟ قالت : يمنعه قول رسول الله ﷺ : «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[(٥)] . فبرغم أن غيرة الفاروق على أهله شديدة إلا أنه أبى أن يخالف أمر رسول الله ﷺ .

وعن ابن عمر أن عمر بن الخطاب كان لا يغير شيبته في الإسلام فقيل له : يا أمير المؤمنين ألا تغير؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«**من شاب شيبة في**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، ك الحج ، باب ما ذكر في الحجر الأسود ، رقم (١٥٩٧) . ومسلم في صحيحه ، ك الحج ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ، رقم (١٢٧٠) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، ك الأيمان والنذور ، باب لا تحلفوا بآبائكم ، رقم (٦٦٤٧) ، ومسلم في صحيحه ، ك الأيمان ، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، رقم (١٦٤٧) .

(٣) فتح الباري (١١/ ٥٣٢) .

(٤) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٢٧٧) رقم (٦٧٦) .

(٥) رواه البخاري في صحيحه ، ك الجمعة ، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم ، رقم (٩٠٠) ، ومسلم في صحيحه ، ك الصلاة ، باب خروج النساء إلى المساجد . . .رقم (٤٤٢) .

الإسلام كانت له نورا يوم القيامة وما أنا بمغير شيبتي»[١] .

وأما عثمان ﷺ فكان مثلي صاحبيه في الاتباع لقول رسول الله ﷺ ، يسير على دربه ويهتدي بهديه ، وصل اتباعه للنبي ﷺ أنه كان يروي أحاديث النبي ﷺ كل في مجلسه ومناسبته ، ومن أمثلة ذلك :

عن حمران بن أبان مولى عثمان بن عفان ﷺ أن عثمان : دعا بماء فتوضأ ومضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثا ، وذراعيه ثلاثا ثلاثا ، ومسح برأسه وظهر قدميه ثم ضحك ، فقال لأصحابه ألا تسألوني عما أضحكني؟ فقالوا : مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ دعا بماء قريبا من هذه البقعة فتوضأ كما توضأت ثم ضحك ، فقال : «**ألا تسألوني ما أضحكني؟**» ، فقالوا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : «**إن العبد إذا دعا بوضوء فغسل وجهه حط الله عنه كل خطيئة أصابها بوجهه ، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك ، وإن مسح برأسه كان كذلك ، وإذا طهر قدميه كان كذلك**» [٢] .

«ودعا عثمان ﷺ بماء وهو على المقاعد ، فسكب على يمينه فغسلها ، ثم أدخل يمينه في الإناء فغسل كفيه ثلاثا ، ثم غسل وجهه ثلاث مرار ، ومضمض واستنشق واستنثر ، وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثلاث مرات ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مرار ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«**من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٣] .

وهذا يتضح منه تقليد عثمان للنبي ﷺ في الوضوء ، وفعله كما كان يفعل .

وروي أن عثمان ﷺ اشترى من رجل أرضا فأبطأ عليه ، فلقيه فقال له : ما

---

(١) كنز العمال (٦/ ٦٨٩) رقم ١٧٤٢٤ . وعزاه إلى : أبو نعيم في المعرفة .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٥٨) رقم ٤١٥ . قال شعيب الأرنؤوط : صحيح لغيره .

(٣) رواه أحمد في مسنده (١/ ٥٩) رقم ٤١٨ . وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح .

منعك من قبض مالك؟ قال : إنك غبنتني فما ألقى من الناس أحدا إلا وهو يلومني ، قال : أو ذلك يمنعك؟ قال : نعم . قال : فاختر بين أرضك ومالك . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : «**أدخل الله ﷻ الجنة رجلا كان سهلا مشتريا وبائعا ، وقاضيا ومقتضيا**»[(١)] .

فهذا من أروع الأمثلة في السماحة في البيع والشراء ، وفعل عثمان ﷺ متابعة لقول النبي ﷺ فهذا هو الدافع له من حسن المعاملة ، ويدل على ما جبل عليه عثمان من الكرم وعدم التعلق بالدنيا فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التي أهمها الإيثار ، ولا تسعبده الدنيا فتجعله أنانيا يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس ، والأمثلة على متابعة عثمان للنبي ﷺ كثيرة .

أما عن رابع الخلفاء الراشدين فقد كان ﷺ من أحرص الناس على تطبيق كلام رسول الله ﷺ فهو القائل :«كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه» [(٢)] . وكيف يكون الانتفاع بأحاديث رسول الله ﷺ إلا بتطبيقها والعمل بمضمونها .

لقد كان ﷺ من أحرص الناس على تطبيق ما سمعه من رسول الله ﷺ حتى في أصعب الظروف ، حيث علم رسول الله ﷺ عليا وفاطمة دعاء ما قبل النوم بقوله : «**أَلاَ أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ ، وَتَحْمَدَاهُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**» . قَالَ عَلِيٌّ : مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، قِيلَ لَهُ : وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قَالَ : وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينِ[(٣)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٥٨) رقم ٤١٠ . وقال شعيب الأرنؤوط : حسن لغيره .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٨) رقم ٤٧ . وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، ك الذكر والدعاء والتوبة ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ، رقم (٢٧٢٧) .

فتعاهد أحاديث رسول الله ﷺ بالعمل بها وتطبيقها بعد تعلمها من أهم الأمور التي ينتفع بها الإنسان المسلم ، والهدف الأول من تعلم العلم هو أن يعمل الإنسان به وأن يطبقه في واقع حياته ، وهذا هو المنهج الذي اتبعه علي ﷺ .

لقد كان أمير المؤمنين علي ﷺ شديد الحرص على الاقتداء بالنبي ﷺ ، وحياته العملية خير شاهد على ذلك : روي أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ شرب قائما فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه ، فقال : ما تنظرون أن أشرب قائما فقد رأيت النبي ﷺ يشرب قائما ، وأن أشرب قاعدا ، فقد رأيت النبي ﷺ يشرب قاعدا [(١)] .

ومن خلال ما سبق يتضح أنه من الركائز التي قامت عليها سياسة الخلفاء مع أنفسهم متابعة رسول الله ﷺ والسير على هداه ، فقد كانوا مثالا فريدا في اتباعهم لسنة النبي ﷺ واقتفائهم أثره ، ولقد اتضح هذا الأمر من خلال أقوالهم وسيرتهم العملية .

٢ـ الزهد في الدنيا والتقلل منها والرغبة في الدار الآخرة

علم الخلفاء أن الناس ترقبهم عيونهم ، وعلموا قبل ذلك أن الله مطلع عليهم ومحاسبهم : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٣] ، فتخلقوا بهذا الخلق الحميد والسلوك المجيد .

لقد ساس الخلفاء أنفسهم بسياسة الشدة فعاشوا عيشة الخشونة ليكونوا قدوة لهم في تلك الفترة الهامة من حياة الأمة الإسلامية . والناس كما هو معلوم عنهم أنهم ينظرون بعيونهم لترى سلوك حكامهم ودعاتهم ، فإن نظروا إلى ما في أيدي الناس صاروا لديهم مذمومين ، أما إن زهدوا وقنعوا وابتعدوا عما في أيدي الناس علوا في

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٠١) رقم ٧٩٥ . وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن .

عيونهم واستحوذوا على حبهم واحترامهم . وليس هناك خلق يؤدي إلى حب الناس مثل الزهد عما في أيدي الناس ، دلالة ذلك ما رواه ابن ماجه[١] عن سهل بن سعد الساعدي قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله ﷺ دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس . فقال رسول الله ﷺ : «**ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك**» [٢] .

ومن أجل ذلك زهد الخلفاء في الدنيا وساسوا أنفسهم على ذلك لأنهم علموا حقيقتها ، وعاشوا بين الناس حاملين لواء هذا الخلق في خطبهم وسلوكهم ، وسأذكر جانبا منه :

فهذا الصديق ﷺ ظهر زهده في الإمارة التي يتسابق عليها كثير من الناس ، ففي خطبة له بين عدم حرصه على الإمارة والخلافة والحكم ، فقد«قام أبو بكر ﷺ فخطب الناس واعتذر إليهم وقال : والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت فيها راغبا ، ولا سألتها الله عز وجل في سر وعلانية ، ولكني أشفقت من الفتنة ، ومالي في الإمارة من راحة ، ولكن قلدت أمرا عظيما مالي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل ، ولوددت أنَّ أقوى الناس عليها مكاني اليوم»[٣] . وقال

---

(١) محمد بن يزيد الربعي القزويني ، أبو عبد الله ، ابن ماجه : أحد الأئمة في علم الحديث . من أهل قزوين . ولد سنة ٢٠٩هـ ٨٢٤ م ، ورحل إلى البصرة وبغداد والشام ومصر والحجاز في طلب الحديث . وصنف كتابه سنن ابن ماجه ، وهو أحد الكتب الستة المعتمدة ، وله تصانيف أخرى ، وتوفي سنة ٢٧٣هـ ٨٨٧م . الأعلام (٧/ ١٤٤) .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه ، ك الزهد ، باب الزهد في الدنيا ، (٢/ ١٣٨٣) رقم ٤١٠٢ . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، رقم (٣٢١٣) .

(٣) المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ، (٣/ ٧٠) رقم ٤٤٢٢ ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى/ ١٤١١هـ ١٩٩٠م ، مع الكتاب تعليقات الذهبي في التلخيص . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

ﷺ :«ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين أبي عبيدة بن الجراح أو عمر ، فكان أميرا وكنت وزيرا» [١] .

وقد تكررت خطب الصديق ﷺ في الاعتذار عن تولي الخلافة وطلبه بالتنحي عنها :«لما بويع أبو بكر ﷺ أغلق بابه ثلاثة أيام يخرج إليهم في كل يوم فيقول : أيها الناس قد أقلتكم بيعتكم فبايعوا من أحببتم ، وكل ذلك يقوم إليه علي بن أبي طالب فيقول : لا نقيلك ولا نستقيلك وقد قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا يؤخرك ؟[٢] .

وقام أبو بكر ﷺ على منبر رسول الله ﷺ فقال : هل من كاره فأقيله ثلاثا؟ يقول ذلك ، فعند ذلك يقوم علي بن أبي طالب فيقول : لا والله لا نقيلك ولا نستقيلك ، من ذا الذي يؤخرك وقد قدمك رسول الله ﷺ[٣] . وكان علي ﷺ يقول : يا أيها الناس أيكم يؤخر من قدم رسول الله ﷺ؟[٤] .

ولما حضرت أبا بكر ﷺ الوفاة قال :«ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لا أصيب من هذا المال شيئا ، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك إلى عمر ولقوحا[٥] وعبدا صيقلا[٦] وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم فقال عمر : لقد أتعب من بعده»[٧] .

وقال الفاروق ﷺ :«نظرت في هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أُضِر بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة أُضِر بالدنيا ، فإذا كان الأمر هكذا فأَضِروا بالفانية»[٨] .

---

(١) كنز العمال (٥/ ٦٣٢) رقم ١٤١١٣ . وعزاه إلى : أبي عبيد في كتاب الأموال .

(٢) كنز العمال ، رقم ١٤١٥٤ . وعزاه إلى : العشاري .

(٣) كنز العمال ، رقم ١٤١٤٥ . وعزاه إلى : ابن النجار .

(٤) كنز العمال ، رقم ١٤١٥٣ . وعزاه إلى : العشاري واللالكائي والأصبهاني في الحجة .

(٥) أي : ناقة لقوحا ، وهي : إذا كانت غزيرة اللبن . من تعليق المحقق على كنز العمال ، رقم ١٤٠٧٧ .

(٦) أي : صيقل : الصقال . من تعليق المحقق على كنز العمال ، رقم ٤٥١١٤ .

(٧) الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٦، ١٨٧) ، تاريخ الطبري (٢/ ٣٥٤) .

(٨) حلية الأولياء (١/ ٥٠) ، كنز العمال ، رقم ٨٥٥٦ .

وقال : «وإني والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاما ، وأرقكم عيشا ، أما والله ما أجهل عن كراكر[١] وأسنمة ، وعن صلاء ، وعن صلائق وصناب «الخردل مع الزبيب» .

قال جرير : «الصلاء الشواء ، والصناب الخردل ، والصلائق الخبز الرقاق» ولكني سمعت الله تعالى عير قوما بأمر فعلوه ، فقال : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠] ، وفي إحدى الروايات فيقال لنا يوما : إني والله قد أرى تقذيركم وكراهيتكم طعامي ، أما والله لو شئت لكنت أطيبكم»[٢] . وأبطأ الفاروق ﷺ جمعة بالصلاة والخطبة ، فخرج فلما صعد المنبر جعل يعتذر إلى الناس ، وهو يقول : حبسني قميصي هذا لم يكن لي قميص غيره ، وجعل يمد يده ، يعني كميه ، فإذا تركه رجع إلى أطراف أصابعه[٣] .

وخطب عمر ﷺ الناس فقال :«إن أمير المؤمنين يشتكي بطنه من الزيت ، فإن رأيتم أن تحلوا له ثلاثة دراهم ثمن عكة[٤] من سمن من بيت مالكم فافعلوا»[٥] .

ولما بايع أهل الشورى عثمان ﷺ خرج وهو أشدهم كآبة فأتى منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، وقال :«إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم

---

(١) الصدر من كل ذي خف يقال : برك على كركرته ، وهو يريد إحضارها للأكل ، فإنها من أطايب ما يؤكل . النهاية في غريب الحديث (٧ / ٢٥٧) ، المعجم الوسيط (٢ / ٧٨٤) .

(٢) تاريخ المدينة المنورة (٢/ ٦٩٦) .

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٢٩) ، كنز العمال ، رقم ٣٦٠٠٢ .

(٤) العُكَّة أصغر من القِرْبة للسمن ، وهو زُقَيْقٌ صغير ، وجمعها عُكَكٌ وعِكَاكٌ ، وهي وعاء من جلود مستدير يختص بهما وهو بالسمن أخص . لسان العرب (١٠/ ٤٦٨) .

(٥) تاريخ المدينة المنورة (٢/ ٧٠٥) .

بالله الغرور ، اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ، ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا وللذي هو خير ، فقال ﷻ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥] .

وخطب أيضا فقال :«وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها»(١) .

وقال علي ﷺ في جزء من خطبته :«أتيتموني لتبايعوني فقلت لا حاجة لي في ذلك ، ودخلت منزلي فاستخرجتموني ، فقبضت يدي فبسطتموها . . . . فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك ، وقد علم الله سبحانه أني كنت كارها للحكومة بين أمة محمد ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :«**ما من وال يلي شيئا من أمر أمتي إلا أتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق ، ثم ينشر كتابه ، فإن كان عادلا نجا وإن كان جائرا هوى**»(٢) . والحديث ذكره الحاكم في المستدرك عن ابن عباس { أن رسول الله ﷺ قال :«**من ولي على عشرة فحكم بينهم بما أحبوا أو كرهوا جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، فإن حكم بما أنزل الله و لم يرتش في حكمه ولم يخف فك الله عنه يوم القيامة ، لا غل إلا غله ، وإن حكم بغير ما أنزل الله تعالى وارتشى في حكمه وحابى شدت يساره إلى يمينه ورمى به في قعر جهنم ، فلم يبلغ قعرها خمسمائة عام**»(٣) . وخطب علي بن أبي طالب الناس فقال :«والله الذي لا إله

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٩٣) .

(٢) جمهرة خطب العرب (١/ ٣٠٣) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ١١٦) رقم ٧٠٦٩ . وقال الذهبي : سعدان بن=

إلا هو ما رزأت [١] من فيئكم إلا هذه ، وأخرج قارورة من كم قميصه فقال : أهداها إلي مولاي دهقان»[٢] .

هذه أقوال الخلفاء أما سيرتهم العملية فقد توافقت مع أقوالهم ، وطبقوا الزهد والقناعة في واقع حياتهم ، عاش الخلفاء حاملين هذا الخلق الحميد زاهدين في الدنيا .

فأبو بكر ﷺ لما بويع بالخلافة أصبح وعلى ساعده أبراد[٣] وهو ذاهب إلى السوق ، فقال عمر : أين تريد؟ قال : السوق . قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال : فمن أين أطعم عيالي؟ فقال عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فانطلقا إلى أبي عبيدة فقال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم[٤] ، وكسوة الشتاء والصيف إذا أخلقت[٥] شيئا رددته وأخذت غيره ، ففرضا له كل يوم شطر شاة وما كساه في الرأس والبطن[٦] .

إنه خليفة ومع هذا يفرض له مثل قوت رجل من المهاجرين ويرضى إنه الزهد ، ويرفض الصديق أن يعيش عالة على الناس ينظر إلى ما في أيديهم فيذهب إلى السوق ليطعم عياله ، ولما لم يكفه الراتب الذي فرض له طلب الزيادة ولم يأخذ من بيت المال ما يريد ، فقد روي :«لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال : زيدوني فإن لي

. . . . . .

= الوليد البجلي كوفي قليل الحديث ، ولم يخرجا عنه .

(١) يقال : رزأته أرزأه وأصله النقص ، أي لم يأخذا منه شيئا . النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٦٧) .

(٢) حلية الأولياء (١/ ٨١) .

(٣) «البرد نوع من الثياب معروف ، والجمع أبراد وبرود ، والبردة الشملة المخططة . وقيل : كساء أسود مربع فيه صور تلبسه الأعراب» . النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٣٥) .

(٤) الوكس : النقص . النهاية في غريب الحديث (٩/ ٣٤٤) .

(٥) أي : أبليت . المعجم الوسيط (١/ ٢٨٦) .

(٦) الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٤) ، كنز العمال ، رقم ١٤٠٦٧ .

عيالا وقد شغلتموني عن التجارة ، فزادوه خمس مائة»[١] . ومع ذلك خرج الصديق من كل هذه الأموال وأوصى بردها بعد موته إلى بيت مال المسلمين من قطعة أرض له ، أوصاهم ببيعها ودفع كل الأموال التي أخذها إلى بيت المال ، وقد فعلوا . فقد روي :«لما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فإني لا أصيب من هذا المال شيئا ، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم ، فدفع ذلك إلى عمر ، ولقوحا ، وعبدا صيقلا ، وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم . فقال عمر : لقد أتعب من بعده[٢] .

أما الفاروق فإذا تكلمت عن الزهد في حياته فقد يطول بي الحديث ، لأنه الزاهد الورع الذي علم الزهد للزاهدين .«لقد بسطت الدنيا بين يدي الفاروق وتحت قدميه ، وفتحت الدنيا في عهده وأقبلت الدنيا راغمة فما طرف لها بعين ولا اهتدى لها قلبه ، بل كان كل سعادته في إعزاز دين الله وكسر شوكة المشركين ، فكان الزهد صفة بارزة في شخصية الفاروق»[٣] . خطب عمر بن الخطاب الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[٤] .

وفي عام الرمادة شارك الفاروق الرعية شدتها فقد كان الزهد طريقه ، فقد روي أنه :«أصابت الناس في إمارة عمر ﷺ سنة بالمدينة وما حولها ، فكانت تسفي إذا ريحت ترابا كالرماد ، فسمي ذلك العام عام الرمادة . فآلى عمر ألا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيى الناس ، فأحيا الناس ، فقدمت السوق عكة[٥] من سمن

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٤) ، كنز العمال ، رقم ١٤٠٦٨ .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٥٤) ، كنز العمال ، رقم ١٤٠٧٧ .

(٣) الفاروق أمير المؤمنين مع النبي ﷺ ، د/ لماضة ، صـ١١ ، دار الصحابة بطنطا ، ط الأولى/ ١٤١٨هـ١٩٩٧م .

(٤) كنز العمال ، رقم ٣٥٩٤٢ . وعزاه إلى : هناد وابن جرير وأبو نعيم .

(٥) عُكَّ إذا غلى من الحرّ ، والعُكَّة للسَّمْن كالشَّوْكَة للبن ، وقيل : العُكَّة أصغر من القِرْبة للسمن ، وهي زُقَيْقٌ صغير . وهي وعاء من جلد مستدير ، وهو بالسمن أخص . لسان العرب (١٠/ ٤٦٨) .

ووطب[١] من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين ، ثم أتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فابتعتهما بأربعين . فقال عمر : أغليت بهما فتصدق بهما فإني أكره أن آكل ، كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم»[٢] .«وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول : قرقرا ولا تقرقرا ، والله لا ذاق عمر سمنا ولا سمينا حتى يخصب[٣] الناس»[٤] . وعن أنس ﷺ قال : «غلا الطعام بالمدينة فجعل عمر ﷺ يأكل الشعير ، فجعل بطنه يصوت ، فضرب بيده على بطنه وقال : والله ما هو إلا ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين»[٥] .

إن زهد الفاروق كان زهد من وجد ، لا زهد من فقد ، يحيا الحاكم المسلم كما يحيا الناس ، ويعيش كما يعيش الناس ، يشاركهم فيما يقع بهم ، فلا فرق ولا حاجز بينه وبينهم .

أما أمير المؤمنين عثمان فإن كان اشتهر بأنه من أهل الغنى والثروة ، ولكنه مع هذه الشهرة ، فإنه قد رويت عنه أخبار تدل على أنه كان من الزاهدين في الدنيا . فقد روي عن عبد الملك بن شداد قوله :«رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة دراهم ، وكوفية ممشقة . وسئل الحسن عن القائلين في المسجد فقال : رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة ، يقوم وأثر الحصى بجنبه . فيقال هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين . وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل

---

(١) الوَطْبُ : سِقاءُ اللبنِ . لسان العرب (١/ ٧٩٧) .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٨) .

(٣) الخصب : ضد الجدب أخصبت الأرض ، وأخصب القوم ، ومكان مخصب وخصيب . النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٠) .

(٤) البداية والنهاية (١٣/ ٣٦) .

(٥) تاريخ المدينة المنورة (٢/ ٧٤٢) .

الخل والزيت . ورؤي عثمان بن عفان وهو على بغلة وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة»[١] .

فهذه أمثلة جليلة من زهد أمير المؤمنين عثمان«وحينما يكون الزاهد متوسطا في المعيشة فإن زهده لا يلفت النظر كثير ولا يثير العجب ، ولكن حينما يكون غنيا فإن زهده يكون مدهشا للمتأملين وعبرة للمعتبرين ، ذلك لأن كثرة المال تغري بالانصراف نحو الملذات والتوسع في النفقات ، فلابد ليكون الغني زاهدا من استيعابه لفقه القدوم على الله حتى يكون مهيمنا على نفسه مذكرا لقلبه ، فتكبر الآخرة في عينه وتصغر الدنيا في نفسه . وهكذا كان عثمان من أعظم الأثرياء في الإسلام قد غلبت قوة إيمانه وهواه ، فكان من أعظم الزاهدين ، وضرب من نفسه مثلا لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغنى والزهد في الدنيا»[٢] .

أما الإمام علي ﷺ فقد فهم حقيقة الدنيا فزهد فيها وضرب لنا أروع الأمثلة في الزهد ، وسأضرب بعض هذه المواقف المدهشة العجيبة في زهد الإمام علي ﷺ .

عن عبد الله بن زرير أنه قال : دخلت عَلَى عَلِي بن أبي طالب ﷺ يوم الأضحى فقرب إلينا خزيرة[٣] فقلت : أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط يعني الوز فإن الله ﷻ قد أكثر الخير ، فقال : يا بن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :«**لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يضعها بين يدي الناس**»[٤] .

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٦٠) .

(٢) التاريخ الإسلامي (١٧/ ٤٩) .

(٣) الخزيرة : لحم يقطع صغارا ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق ، فإن لم يكن فيها لحم فهى عصيدة . وقيل : هي حسا من دقيق ودسم . وقيل : إذا كان من دقيق فهى حريرة ، وإذا كان من نخالة فهو خزيرة . النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣١) .

(٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٧٨) رقم ٥٧٨ . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، رقم (٣٦٢) .

«وعن صالح بن أبى الأسود عمن حدثه أنه رأى عليا قد ركب حمارا ودلى رجليه إلى موضع واحد ثم قال : أنا الذي أهنت الدنيا . وتذاكروا الزهاد عند عمر ابن عبدالعزيز فقال قائلون فلان ، وقال قائلون فلان ، فقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس في الدنيا على بن أبى طالب»[١] .

«وأتى بفالوذج «وهي : عبارة عن طست كبير يوضع وسط المائدة» فوضع قدامه بين يديه ﷺ فقال : إنك طيب الريح ، حسن اللون ، طيب الطعم ، لكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتده»[٢] .

«وقيل لعلي : يا أمير المؤمنين ، لم ترقع قميصك؟ قال : يخشع القلب ويقتدي به المؤمن .

وعن أبي سعيد الأزدي وكان إماما من أئمة الأزد قال : رأيت عليا أتى السوق ، وقال : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم؟ فقال رجل : عندي . فجاء به فأعجبه ، قال : لعله خير من ذلك؟ قال لا ذاك ثمنه . قال : فرأيت عليا يقرض رباط الدراهم من ثوبه فأعطاه فلبسه ، فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه فأمر به فقطع ما فضل عن أطراف أصابعه . وعن علي بن الأرقم عن أبيه قال : رأيت عليا وهو يبيع سيفا له في السوق ، ويقول : من يشتري مني هذا السيف فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته . وعن يزيد ابن محجن قال : كنت مع علي وهو بالرحبة فدعى بسيف فسله ، فقال : من يشتري سيفي هذا فوالله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»[٣] .

ومن خلال ما سبق يتضح أن من الركائز التي ساس بها الخلفاء أنفسهم هو

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٦) .

(٢) حلية الأولياء (١/ ٨١) .

(٣) حلية الأولياء (١/ ٨٣) .

الزهد في الدنيا ، حيث جعلوها في أيديهم ولم يجعلوها في قلوبهم ، وهم يعلمون أن هذه الدنيا زائلة ، وأيامهم فيها قليلة ، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولذلك هم بها لا يغترون وعن حقيقتها لا يغفلون .

لقد كان الخلفاء قدوة طيبة لكل المسلمين في زهدهم وورعهم . قدوة للحكام والمحكومين ممن آتى بعدهم . وهذا يدل على عظمة التربية التي ربى عليها النبي ﷺ أصحابه الكرام . وهذه صفة يجب أن يتصف بها الحاكم المسلم .

٣ـ إلزام الخلفاء أنفسهم بالتحلي بمكارم الأخلاق ودعوة الرعية إلى ذلك :

الحاكم المسلم له أوصاف وآداب يمتاز بها عن بقية الحكام ، فالحاكم المسلم في النظام السياسي الإسلامي نموذج جيد لكل ما حوى الإسلام من تعاليم ، واستن من مكارم . والحاكم المسلم الناجح لابد وأن تتوفر لديه مؤهلات النجاح في قيادة الدولة وخدمة الدعوة .

فالحاكم المسلم يعيش بين رعيته عاملا لدعوته ، مجتهدا في الوصول إلى قلوبهم ، ساعيا إلى نقلهم من محيط إلى محيط ، من محيط الغفلة إلى محيط التذكير ، من محيط الجهل إلى محيط العلم ، من محيط الكسل إلى محيط العمل . ولن يستطيع الوصول إلى ذلك إلا إذا امتلك القلوب بحسن خلقه وجميل طبعه[١] .

ومن ثم لابد من توفر مقومات وصفات أخلاقية في الحاكم المسلم حتى ينجح في دعوته ، ونجاة الناس على يديه واستقامتهم على الصراط المستقيم .

وقد وضع العلماء وصفا تفصيليا للصفات التي ينبغي أن تتوفر في الحاكم المسلم ، وقسم العلماء هذه الصفات إلى قسمين : صفات علمية ، وصفات أخلاقية .

والمقصود بالصفات العلمية هو : أن يكون الحاكم معدًا إعدادًا علميًا يعينه على

---

(١) تاريخ الدعوة في حياة أبي بكر (١/ ٦٣) بتصرف .

تفهم رسالته فهمًا دقيقًا ، يؤهله للتعامل الصحيح مع رعيته؛ كي يستطيع القيام بأداء واجباته على الوجه الصحيح .

والمقصود بالأخلاق هي :«أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره ، وهي محمودة ومذمومة ، فالمحمودة على الإجمال : أن تكون مع غيرك على نفسك ، فتنصف منها ولا تنصف لها ، وعلى التفصيل العفو والحلم ، والجود ، والصبر ، وتحمل الأذى ، والرحمة ، والشفقة وقضاء الحوائج ، والتودد ولين الجانب ونحو ذلك ، والمذموم منها ضد ذلك»[١] .

«وأعظم الخلق وأحسنه : التخلق بأخلاق القرآن الكريم امتثالاً لأوامره واجتنابًا لنواهيه ، ووقوفا عند حدوده ، ومصاحبته دائمًا قراءة وتدبرًا وعملاً وتطبيقًا»[٢] .

والمتأمل في سياسة الخلفاء مع أنفسهم يجد أنهم قد تحلوا بمكارم الأخلاق ، حيث كانت أخلاقياتهم لا مثيل لها . لقد كانوا أحسن الناس خلقا ، اجتمع فيهم من أوصاف المدح والثناء ما تفرق في غيرهم .

لقد تحلى الخلفاء بصفات جعلتهم من القواد الربانين ، وأهم الصفات التي تحلى بها الخلفاء والتي ظهرت في شخصيتهم : الخوف من الله ، والعلم والعمل به ، والقوة الدينية ، وحب التضحية ، والمروءة ، والتواضع والعدل ، والخبرة وحسن اختيارهم لمعاونيهم ، والحلم والصبر ، والزهد وعلو الهمة ، والشجاعة والفطنة ، والفراسة ، والقدوة الحسنة والرحمة ، والإخلاص والصدق والحزم ، والقدرة على التعليم وإعداد القادة ، والوفاء بالعهود ، إلى غير ذلك من الصفات التي اتصف بها الخلفاء .

---

(١) أصول الدعوة في ضوء الكتاب والسنة ، د/ بدير محمد بدير ، ص ٢٢١ ، دار نور الإسلام للنشر والتوزيع بالمنصورة ، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

(٢) المرجع السابق ، صـ٢٢١ .

والمتأمل في سياسة الخلفاء وخطبهم وسيرتهم العملية يجد أن من سياسة الخلفاء الراشدين مع أنفسهم أنهم دعوا الرعية إلى التمسك بحسن الخلق وطبقوا ذلك هم في واقع حياتهم ، فطابق القول العمل ، فعملوا بما قالوا ، فقد حثوا الرعية على تطبيقها وكانوا هم أول الممتثلين لذلك فكانوا قدوة للرعية .

فالقدوة في الحاكم هي«المعلم القدير بلا لسان ، والمرشد الناصح من غير بيان ، وهي مدرسة الإنسان العملية التي يرسخ تعليمها في النفوس ويعلق بالأفهام . والناس مائلون بالطبع إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلموا بآذانهم ، والمرئي يؤثر أكثر من المقروء والمسموع ، وتعليم العمل أنفع من تعليم القول ، والإرشاد يري الطريق لكن القدوة تسير فيه ، ولا تستوي في الدلالة على الطريق من وصفه لك وآخر مشي أمامك فيه ، ومهما أوتي الداعي من البراعة في تهذيب النفوس فليس ببالغ ما يبلغه زميل له دونه في المهارة وفوقه السيرة»[1] .

ولن يتمكن الحاكم المسلم وخاصة الداعي إلى حسن الخلق إلزام الناس بالتقييد بتعاليم الشريعة الإسلامية ومن استمالة الناس إليه؛ حتى يكون قدوة لهم فيما يدعوهم إليه .

وقد كان للخلفاء نصيب واف من حسن الخلق دعوة إليه وتمسكا به . وسأذكر جانبا من حثهم الرعية على التحلي بمكارم الأخلاق ، ومن خطبهم التي ظهرت فيها حسن أخلاقهم ويستنبط منها ذلك ، ثم أذكر جانبا من سيرتهم العملية التي تدل على ذلك .

فالصديق يحث الرعية على التمسك بحسن الخلق في خطبة له ، يحثهم على الصدق والحياء من الله ، وينهاهم عن الفجور والتفاخر بالأحساب والأنساب . فعن أوسط بن سليط قال :«خطبنا أبو بكر ﷺ فقال : قام رسول الله ﷺ مقامي

(١) الخلق الكامل ، محمد أحمد المولى ، (١/ ١٦٦) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

هذا عام الأول ، وبكى أبو بكر فقال أبو بكر : سلوا الله المعافاة ، أو قال العافية . فلم يؤت أحد قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة ، عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تدابروا[١] ، وكونوا إخوانا كما أمركم الله تعالى»[٢] .

وبين الصديق أنه يستحي من الله حق الحياء . فعن ابن شهاب أن أبا بكر الصديق قال يوما وهو يخطب : «استحيوا من الله ، فوالله ما خرجت لحاجة منذ بايعت رسول الله ﷺ إلا مقنعا رأسي حياء من ربي»[٣] . وعن ابن الزبير أن أبا بكر قال وهو يخطب :«يا معشر الناس استحيوا من الله فوالذي نفسي بيده إني لأظل حتى أذهب إلى الغائط في الفضاء مغطيا رأسي -وفي لفظ : مقنعا رأسي- استحياء من ربي»[٤] .

وحث الرعية على الصدق ولزوم الحق ، ونهاهم عن الفجور والفخر ، فقال في خطبة له :«الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأَستغفره وأومن به وأَتوكّل عليه ، وأَسْتهدي اللهّ باهُدى ، وأَعوذ به من الضّلال والرّدى[٥] ، ومن الشك والعَمى . مَن يَهْدِ اللهّ فهو المُهتدي ومن يُضلّل فلن تَجد له وليًّا مُرْشداً . وأَشهد أن لا إله إلا اللهّ وحدَه لا شريكَ له ، له المُلك وله الحَمْد يُحيي وُيميت ، وهو حَيٌّ لا يَموت ، يُعزّ مَن يشاء ، ويُذِل مَن يشاء ، بيده الخَير وهو عَلَى كلّ شيء قدير . وأَشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، أَرسله باهُدى ودين الحق ليُظهره عَلَى الدين كلّه ولو كَرِه المشركون ، إلى الناس كَافة

---

(١) أي : لا يعطى كل واحد منكم أخاه دبره وقفاه فيعرض عنه ويهجره . النهاية في غريب الحديث (٣/ ١١٩) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣) رقم ٥ ، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح .

(٣) كنز العمال ، رقم ٢٧١٨٧ ، ٤٤١٨١ ، وعزاه إلي : حب في روضة العقلاء ، وهو منقطع .

(٤) كنز العمال ، رقم ٤٤١٨١ ، وعزاه إلى : ابن المبارك ، والخرائطي في مكارم الاخلاق .

(٥) الردى : الهلاك . النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٦٤) .

رحمةً لهم وحُجة عليهم ، والناسُ حينئذ عَلَى شَرّ حال ، في ظُلمات الجاهليّة ، دينّهم بِدْعة ، ودَعْوتهم فِرْية[١] . فأعز اللهّ الدينَ بمحمد ﷺ وألفَ بين قلوبكم أيها المؤمنون فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حُفْرة من النار فأَنقذكم منها ، كذلك يُبيّن اللهّ لكم آياته لعلكم تَهتدون . فأَطيعوا اللهّ ورسوله ، فإنه قال ﷻ : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء:٨٠] ، أمّا بعد ، أيها الناس ، إني أوصيكم بتقوى اللهّ العظيم في كل أَمر وعَلَى كلِ حال ، ولُزوم الحق فيما أَحببتم وكَرِهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير . مَن يَكْذب يَفْجر ، ومَن يَفْجر يَهْلِك . وإيّاكم والفَخْرَ ، وما فَخْرُ مَن خُلق من تراب وإلى التراب يَعود ، هو اليوم حيّ غدا مَيّت . فاعمَلوا وعُدُّوا أنفسَكم في الموتى ، وما أَشكل عليكم فردّوا عِلْمه إلى اللهّ ، وقَدِّموا لأنفسكم خيرا تَجدوه محْضرا ، فإنه قال ﷻ : ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠] ، فاتّقوا اللهّ عبادَ اللهّ ، وراقبوه واعتبروا بمَن مَضى قبلكم ، واعلموا إنه لا بُدّ من لقاء ربّكم والجزاء بأعمالكم صَغيرها وكَبيرها ، إلا ما غَفر اللهّ إنه غَفور رحيم ، فأَنْفسَكم أَنفسكم والمُستعانُ الله ، ولا حَولَ ولا قوّة إلّا باللهّ . إنَّ اللهّ وملائكته يصلّون على النبيّ ﷺ ، يأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلِّموا تَسْليماً . اللَّهم صَلِّ على محمدٍ عَبْدِك ورسولك أفضلَ ما صلَيت على أحدٍ من خلْقك ، وزَكِّنا بالصلاة عليه ، وأَلحقنا به ، واحشُرنا في زمْرته ، وأَوْرِدْنا حوضَه . اللَّهم أَعِنَّا عَلَى طاعتك ، وانصُرنا عَلَى عدوّك»[٢] .

وأما الفاروق فقد ألزم نفسه حسن الخلق وتحلى به وحث رعيته على ذلك . لما

---

(١) الفرى : جمع فرية وهى الكذبة ، يقال : فرى يفرى فريا ، وافترى يفترى افتراء ، إذا كذب ، وهو افتعال منه . النهاية في غريب الحديث (٦/ ١٠٩) .

(٢) جمهرة خطب العرب (١/ ١٨٤)(١٨٥) .

ولى الخلافة صعد المنبر فقال :«ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلا لمجلس أبي بكر فنزل مرقاة . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اقرؤوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية ، إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ، ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولى اليتيم ، إن استغنيت عففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف»[١] .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ في خطبته :«تعلمون أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأنه من يئس مما عند الناس استغنى عنهم»[٢] . وخطب ﷺ أيضا فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ :« أيها الناس ، إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وأنتم مؤجلون في دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله ﷺ تؤخذون بالوحي فمن أسر شيئا أخذ بسريرته ، ومن أعلن شيئا أخذ بعلانيته ، فأظهروا لنا حسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فإنه من أظهر شيئا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا ، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق ، فأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . أيها الناس أطيبوا مثواكم[٣] ، وأصلحوا أموركم ، واتقوا الله ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القباطي[٤] فإنه إن لم يشف فإنه يصف ، أيها الناس إني لوددت أن أنجو كفافا[٥] لا

---

(١) كنز العمال ، رقم ٤٤٢١٤ ، وعزاه إلى الدينوري .

(٢) حلية الأولياء (١/ ٥٠) . كنز العمال ، رقم ٤٤٣٨٢ .

(٣) المَثْوى الموضع الذي يُقام به . لسان العرب (١٤ / ١٢٥) .

(٤) القبطية : الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء وجمعها القباطي . النهاية في غريب الحديث والأثر (٧/ ١٠) .

(٥) الكفاف : هو الذى لا يفضل عن الشئ ، ويكون بقدر الحاجة إليه ، وقيل : أراد به مكفوفا عنى شرها . وقيل : معناه ألا تنال منى ولا أنال منها : أي تكف عنى وأكف عنها . النهاية في غريب الحديث (٧/ ٢٩٤) .

لي ولا علي ، وإني لأرجو إن عمرت فيكم يسيرا أو كثيرا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ، ولا يعمل إليه نفسه ولم ينصب إليه يوما ، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ، ولقليل في رفق خير من كثير في عنف ، والقتل حتف[1] من الحتوف يصيب البر والفاجر ، والشهيد من احتسب نفسه ، وإذا أراد أحدكم بعيرا فليعمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره»[2] .

وقد خطب الناس وبين لهم أن من سياسته معهم الرحمة والرأفة والتواضع لكل مسلم والشدة والغلظة على كل معتد ظالم . فقد روي أنه لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :«يا أيها الناس إني علمت أنكم كنتم تونسون مني شدة وغلظة وذلك أني كنت مع رسول الله ﷺ وكنت عبده وخادمه وكان كما قال الله تعالى : ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ، فكنت بين يديه كالسيف المسلول إلا أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكف ، وإلا أقدمت على الناس لمكان لينه ، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد ، ثم قمت ذلك المقام مع أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ بعده ، وكان قد علمتم في كرمه ودعته[3] ولينه فكنت خادمه كالسيف بين يديه أخلط شدتي بلينه إلا أن يتقدم إلي فأكف وإلا أقدمت ، فلم أزل على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعد . ثم صار أمركم إلي اليوم وأنا أعلم فسيقول قائل : كان يشتد علينا والأمر إلى غيره فكيف به إذا صار إليه؟ واعلموا أنكم لا تسألون

---

(١) الحتف : الهلاك . النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٧١) .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٧٤) .

(٣) الدعة : الخفض والهاء عوض من الواو تقول منه : ودع الرجل بالضم فهو وديع أي ساكن ، ورجل متدع أي صاحب دعة واستراحة . الصحاح للجوهري (٣/ ١٢٩٦) .

عني أحدا قد عرفتموني وجربتموني ، وعرفتم من سنة نبيكم ما عرفت ، وما أصبحت نادما على شيء أكون أحب أن أسأل رسول الله ﷺ عنه إلا وقد سألته ، فاعلموا أن شدتي التي كنتم ترون ازدادت أضعافا إذ صار الأمر إلي على الظالم والمعتدي ، والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم ، وإني بعد شدتي تلك واضع خدي بالأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم ، وإني لا آبى «لاأمتنع» إن كان بيني وبين أحد منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه إلى من أحببتم منكم ، فلينظر فيما بيني وبينه أحد منكم . فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم . ثم نزل»[1] . فيتضح من هذه الخطبة رأفة الفاروق وتواضعه لكل مسلم .

ومن خطبه التي تدل على تواضعه وهو من السياسة التي ساس الفاروق بها نفسه ما روي أنه خطب فكان مما قال :«وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله ﷻ ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئا إن شاء الله ، إنما العظمة لله ﷻ ، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي ، أعقل الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري ، فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق فليؤذني فإنما أنا رجل منكم»[2] .

ومن تواضعه وخوفه من الله أنه طلب من الناس وهو على المنبر أنه من علم فيه عيبا إلا أعلمه به . فقد روي أنه خطب الناس يوما وبين أنه معلمهم بالقدوة«فقال : إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا

---

(١) كنز العمال ، رقم ١٤١٨٤ ، وعزاه إلى : أبو حسين بن بشران في فوائده ، وأبو أحمد الدهقان في الثاني من حديثه ، واللالكائي .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٧٣) .

تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم ، ولست معلمكم إلا بالعمل ، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عرض علي الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت ، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت ففرحت قليلا وحزنت طويلا ، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب»[١] .

وروي أنه :«رقي المنبر وجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس لقد رأيتني وما لي من أكال «طعام» يأكله الناس؛ إلا أن لي خالات من بني مخزوم فكنت أستعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضات من الزبيب . ثم نزل عن المنبر . فقيل له : ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال : إني وجدت في نفسي شيئا فأردت أن أطأطىء منها[٢] . أي : أحسست من نفسي شيئا من الكبر والغرور فأردت أن أذلها وأردها إلى التواضع .

أما عثمان فقد تحلى بحسن الخلق ، وأمر رعيته بحسن الخلق والبعد عن مساوئ الأخلاق . ومن الأخلاق التي ظهرت في خطب عثمان الحلم والعفو عمن ظلمه ، فقد روي أنه :«اجتمع ثلاثة نفر ممن كانوا يحاولون الفتنة في عهد عثمان ، وكانوا رؤوسا لها ، وأجمعوا أن يذكروا أشياء قد زرعوها في قلوب الناس أمام عثمان بن عفان فيقر بها فيأخذون أمرهم إلى عثمان بن عفان فقبض عليهم ، ونادى الصلاة جامعة وهم عنده في أصل المنبر فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم ، وقام الرجلان فقالوا : جميعا اقتلهم فإن رسول الله ﷺ قال : من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا أحل لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم ،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٥) .

(٢)الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٣) ، كنز العمال ، رقم ٣٥٩٨٨ .

فقال عثمان : ﷺ بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحاد أحدا حتى يركب حدا أو يبدي كفرا»[١] . ثم أجاب على ما ذكروه وروجوا له في بين الناس . والشاهد أنه قال في خطبته بل نعفوا ونبصرهم وهذا دليل على أنه كان يتحلى بالعفو وسعة الصدر .

أما علي فقد ألزم نفسه حسن الخلق وأمر رعيته به ونهاهم عن مساوئ الأخلاق ، ومن خطبه التي تدل على ذلك :

قال في جزء من خطبة له بعد أن حمد الله وأثنى عليه :«إن عوازم الأمور أفضلها ، وإن محدثاتها شرارها ، وكل محدث بدعة ، وكل محدث مبتدع ، ومن ابتدع فقد ضيع ، وما أحدث محدث بدعة إلا ترك بها سنة ، المغبون من غبن دينه ، والمغبون من خسر نفسه ، وإن الريا من الشرك ، وإن الإخلاص من العمل ، والإيمان ومجالس اللهو تنسى القرآن ويحضرها الشيطان وتدعو إلى كل غي ، ومجالسة النساء تزيغ القلوب وتطمح إليه الأبصار وهي مصائد الشيطان ، فأصدقوا الله فإن الله مع من صدق ، وجانبوا الكذب فإن الكذب مجانب للإيمان ، ألا إن الصدق على شرف منجاة وكرامة ، وإن الكذب على شرف رديء وهلكه ، ألا وقولوا الحق تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم ، وصلوا أرحام من قطعكم ، وعودوا بالفضل على من حرمكم ، وإذ عاهدتم فأوفوا ، وإذا حكمتم فاعدلوا ، ولا تفاخروا بالآباء ، ولا تنابزوا بالألقاب ، ولا تمازحوا ، ولا يغضب بعضكم بعضا ، وأعينوا الضعيف والمظلوم ، والغارمين وفي سبيل الله ، وابن السبيل والسائلين ، وفي الرقاب ، وارحموا الأرملة واليتيم ، وافشوا السلام ، وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها ، وتعاونوا على البر والتقوى؛ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، وأكرموا الضيف وأحسنوا

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٠،٦٥١) .

إلى الجار ، وعودوا المرضى وشيعوا الجنائز ، وكونوا عباد الله إخوانا»[١] . إنها خطبة بليغة جامعة للخير مرغبة فيه ، ناهية عن الشر .

ولأهمية الأخلاق لم يغفل الإمام علي الدعوة إلى الأخلاق في أول خطبة خطبها في الناس عندما تولى الخلافة حيث قال :«إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر ، إن الله حرم حرما غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب ، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم ، فتخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بالناس أخراهم ، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده فإنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم ، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض الآية»[٢] .

لم تكن الخطبة الأولى للإمام على رسما للمنهاج السياسي الذي سيسلكه في حكمه ، وإنما هي خطبة في الدعوة إلى الله ، دعوة في جانب العقيدة والأخلاق ، وهذا أيضا جانبًا من جوانب السياسة .

ومن خطبه التي يحث رعيته على البعد عن مساوئ الأخلاق : أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال :«أما بعد : فإن الخيلاء من التجبر ، وإن النخوة[٣] من التكبر ، وإن الشيطان عدو حاضر يعدكم الباطل ، ألا إن المسلم أخو المسلم فلا تنابذوا ، ولا تخاذلوا ، ألا إن شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة ، من أخذ بها لحق ، ومن فارقها

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٤١) .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٥٤) .

(٣) العَظَمَة والكِبْرُ والفَخْرُ . لسان العرب (١٥/ ٣١٣) .

محق ، ومن تركها مرق ، ليس المسلم بالخائن إذا أؤتمن ، ولا بالمخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا نطق ، نحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق وفعلنا الفضل ، ومنا خاتم النبيين ، وفينا قادة الإسلام ، وفينا حملة الكتاب ، ألا إنا ندعوكم إلى الله وإلى رسوله ، وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره ، وابتغاء مرضاته ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان»[١] . ومما جاء في بعض خطبه أنه قال : «واستعينوا بالصدق والصبر»[٢] .

هذا قليل من كثير مما أثر عن الخلفاء من خطبهم وأقوالهم التي يظهر منها تحليهم بمكارم الأخلاق وحثهم وترغيبهم الرعية على ذلك . ويتضح أيضًا حرص الخلفاء على الدعوة إلى حسن الخلق .

فالمتأمل في سيرة الخلفاء يجد أنهم حثوا الرعية على التمسك بمكارم الأخلاق وكانوا أول الممتثلين لذلك ، ولما لا وهم الذين تربوا على مائدة صاحب الخلق العظيم رسول الله ﷺ ، وللخلفاء مواقف عملية أكثر من أن تحصى تدل على كونهم قدوة مثلى للرعية في التمسك والتحلي بمكارم الأخلاق[٣] .

٤ـ الاهتمام بالعلم تعلما وتعليما ، وعملا به ، ودعوة إليه ، وبذل الجهد في نشره .

من السياسة التي انتهجها الخلفاء مع أنفسهم الاهتمام بتعلم العلم وتعليمه والعمل به ، والدعوة إليه ونشره بين الناس ، فلابد من مقومات علمية وعملية للحاكم المسلم ، وهذا له تأثير كبير في تكوينه ، وفي تطبيق شريعة الإسلام على الرعية .

وهناك مقومات علمية لابد أن تتوفر في الحاكم المسلم وهي مقومات علمية

---

(١) جمهرة خطب العرب (١/ ٣٤٥) .

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٨٥) .

(٣) من أراد الاستذادة من ذلك فليرجع إلى كتب التاريخ والسير .

دينية ، ومقومات ثقافية . فالحاكم المسلم رجل يحمل الإسلام ليعرضه على الناس ، ويحاول جذبهم إليه ، ويحرص الحاكم على تطبيق شريعة الإسلام على الرعية ترغيبا لهم في بيان محاسنه ، فإن كان الحاكم فاهما لدينه ، عارفا بأحكامه نجح في أن يجمع الناس على الحق الذي أحسن عرضه على الرعية ، أما إذا كان الحاكم خاوي الوفاض من المعرفة فقيرا في علمه ، أضر بالرعية وبالدعوة وتسبب جهله في صد الناس عن الحق ، لذا كان على الحاكم المسلم أن يهتم بدراسة القرآن الكريم حفظا وقراءة وتفسيرا ، وأن يكون على معرفة بالأحكام الفقهية والسنة النبوية والسيرة النبوية .

ومن هنا أحب أن أشير إلى علاقة الدولة بالدعوة ، وأن الحاكم المسلم مهمته حفظ حوزة الإسلام وهي حدوده ونواهيه . والخلافة إنما وضعت لحراسة الدين وسياسة الدنيا به فمن عرف الإسلام معرفة صحيحة ودرسه دراسة متأنية يجد العلاقة الوثيقة بين الدعوة والدولة ، إذ إن الإسلام دعوة تخدمه دولة ،«فالإسلام دعوة الله الخاتمة أكمله وأتم به النعمة ورضيه للناس جميعًا دينًا حيث قال تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]»[(١)] .

وقد«جاء الإسلام ليعبد الدنيا ومن فيها إلى الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها فنظم كل شيء فيها ، وجعله يسير نحو الهدف الذي خلق الناس له قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ، وكرس كل نظام فيها خلف الدعوة لينشرها وينصرها ، ويبلغها ويحميها ، وأضحت الدولة في الإسلام دولة مجاهدة تحمل لواء هذه الدعوة ، وتبذل كافة ما تملك لرفع شأنها ، وليست دولة علمانية تفصل الدين عن الدنيا ، بل هي قائمة في أصلها للمزج بين الدين والدنيا ،

(١) تاريخ الدعوة إلى الله في عهد الفاروق عمر ، صـ ١٤٩ .

وسياسة الدنيا بهذا الدين . لذا يجد الباحث في السياسة الشرعية أن من تكلم من العلماء عن الخلافة والإمامة أو الرئاسة عرفها تعريفًا بين هذا المعنى ووضحه»[١] .

عرف الإمام الجويني الإمامة فقال :«هي رياسة تامة ، وزعامة عامة ، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا ، تتضمن حفظ الحوزة[٢] ، ورعاية الرعية ، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف ، وكف الجنف[٣] والحيف[٤] ، والانتصاف للمظلومين من الظالمين ، واستيفاء الحقوق من الممتنعين وإيفائها على المستحقين»[٥] . وعرفها الإمام الماوردي[٦] فقال :«الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع»[٧] . ونلاحظ في هذين التعريفين أن للإمام عدة وظائف من أهمها مايلي :

١- «حراسة الدين في المقام الأول لأنه رسالة المسلمين في الحياة ، وهذه الحراسة تقوم على حماية الدين من الزيادة فيه ، وحمايته من النقصان .

٢- حفظ أرض الإسلام ورعاية رعيته .

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الله في عهد الفاروق عمر صـ ١٤٩ .

(٢) أي : حدوده ونواهيه . النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢) .

(٣) الميل والجور . النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٣٦) .

(٤) الحَيْفُ : المَيْلُ في الحُكم والجَوْرُ والظُّلم . لسان العرب (٩/ ٦٠) .

(٥) غياث الأمم في التياث الظلم ، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ، صـ ١٥ ، تحقيق : د/ فؤاد عبدالمنعم ، د/ مصطفى حلمي ، دار الدعوة بالاسكندرية ، ١٩٧٩م .

(٦) هو : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، الملقب بإمام الحرمين : أعلم المتأخرين ، من أصحاب الشافعي . ولد في جوين من نواحي نيسابور سنة٤١٩هـ () ١٠٢٨م ، ورحل إلى بغداد فمكة ، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس ، جامعا طرق المذاهب ، ثم عاد إلى نيسابور ، فبنى له الوزير« المدرسة النظامية« فيها . وكان يحضر دروسه أكابر العلماء . له مصنفات كثيرة . توفي ٤٧٨ هـ، ١٠٨٥م . الأعلام (٤/ ١٦٠) .

(٧) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، علي بن محمد بن محمد بن حبيب ، البصري البغدادي ، المشهور بالماوردي ، صـ ٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥هـ .

٣- إقامة الدعوة بالحجة والسيف .

٤- القضاء على الظلم ورد الحقوق لأهلها .

٥- سياسة الدنيا بالدين ، وقيادة الناس بالإسلام»[١] .

«ويلاحظ أن النص على العنصر الأخير كاف في الدلالة على أن الماوردي «وهو من كبار فقهاء الشافعية» كان يرى مما يدخل في صميم اختصاصات النبوة سياسة الدنيا ، ولذا وجب أن يخلف رسول الله ﷺ في هذا الأمر . وقوله حراسة الدين : يفيد أن وظيفة الإمام حراسته وحمايته والذب عنه أي ليس شرحه ، أو التبديل فيه ، ومما ينطوي تحت هذه الحراسة أن يدل الإمام بتصرفاته وأعماله على أنه حافظ للدين منصاع لأوامره»[٢] .

وقد أكد ابن خلدون هذه المعاني كلها حين عرف الخلافة فقال :«والخلافة حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[٣] .

ومن خلال ما سبق يتضح«أن الحكومة الإسلامية ليست في واد والدعوة في واد آخر ، وإنما هي بجهاز حكمها - حاكم ووزراء وعمال- خلف الدعوة ، والغريب أن بعض من ينكرون ذلك يشاهدون كل دعوة ولو كانت باطلة لا تنتشر ولا تنتصر إلا إذا حمتها دولة وحمتها قوة ، وبذلت في سبيلها كل ما تستطيع بذله . وهم يسلمون بذلك لكل مذهب أرضي ، أو نظام بشري ، ولكنهم يحرمون الإسلام من ذلك»[٤] .

---

(١) تاريخ الدعوة إلي الله في عهد الفاروق عمر ص ١٥٠ باختصار .

(٢) المرجع السابق صـ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون صـ ١٩١ .

(٤) تاريخ الدعوة إلي الله صـ ١٥١ .

ومن خلال هذا الفهم الصحيح للإسلام لابد أن يكون الحاكم المسلم لديه مقومات علمية حتى يحمل الناس على حفظ حوزة الإسلام وحراسة الدين وسياسة الدنيا به .

والمتأمل في أقوال الخلفاء وخطبهم يجد أنهم قد حثوا الرعية على الاجتهاد في طلب العلم ، وكانوا لهم قدوة عملية في هذا الأمر ، فكانوا أول الممتثلين لهذا الأمر ، ثم كان الصحابة إذا اختاروا الخليفة أو من يتولى ولاية كانوا يختارون الأعلم والديّن ومن توفرت فيه المقومات العلمية والأخلاقية .

فهذا الصديق يحث الرعية على تعلم العلم وتعليمه ونشره بين الناس :«تعلموا العلم وعلموه الناس»[(١)] . وهذا الفاروق ﷺ ينصح الرعية بتعلم القرآن بتدبر آياته والتخلق بأخلاقه وإتباع الأوامر والابتعاد عن الزواجر . فقال في جزء من خطبته : «يا معشر المسلمين تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم ، وتعلموا القرآن تعرفوا به ، واعملوا بما فيه تكونوا من أهله ، فإنه لم يبلغ منزلة ذي حق أن يطاع في معصية الله»[(٢)] .

ونصح الفاروق ﷺ الأمة بالحرص على طلب العلم والتخلق بأخلاق طلبة العلم فقال :«تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلمون ، وليتواضع لكم من تعلمون ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، ولا يقوم علمكم مع جهلكم»[(٣)] . وقال أيضا :«كونوا أوعية الكتاب ، وينابيع العلم ، وعدوا أنفسكم من الموتى ، واسألوا الله رزق يوم بيوم ولا يضركم إن يكثر لكم»[(٤)] . وقال أيضا :

---

(١) كنز العمال ، رقم ٢٨٨٦٤ ، وعزاه إلى : آدم بن ابي اياس في العلم ، والدينوري في المجالسة ، وابن منده في غرائب شعبة ، والآجري في أخلاق حملة القرآن ، وابن عبد البر في العلم .

(٢) الشيخان أبو بكر وعمر صـ ٢٥٠ . كنز العمال ، رقم ٤٤١٨٧ .

(٣) الزهد لابن حنبل (١/ ١٢٠) .

(٤) المرجع السابق (١/ ١٢٠) .

«تفقهوا قبل أن تسودوا[١]»[٢] .

فجعل السيادة من ثمرات العلم ، وأوصى الطالب باغتنام الزيادة قبل بلوغ درجة السيادة ، وذلك يحقق استحقاق العلم بأن يغبط صاحبه فإنه سبب لسيادته . والحديث دل على أن الغبطة لا تكون إلا بأحد أمرين : العلم أو الجود ، ولا يكون الجود محمودا إلا إذا كان بعلم ، فكأنه يقول : تعلموا العلم قبل حصول الرياسة لتغبطوا إذا غبطتم بحق ، ويقول أيضا : إن تعجلتم الرياسة التي من عادتها أن تمنع صاحبها من طلب العلم فاتركوا تلك العادة ، وتعلموا العلم لتحصل لكم الغبطة الحقيقية . «وبين الفاروق أن السيادة قد تكون سببا للمنع من التفقه في الدين ، لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين»[٣] .

وقد حذر ﷺ الرعية من تعلم العلم من أجل الدنيا ، وحذرهم من عدم العلم بالعمل ، فعن أبي عثمان النهدي قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر :«إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم» قالوا : وكيف يكون منافقا عليما يا أمير المؤمنين؟ قال : عالم اللسان جاهل القلب والعمل«[٤] .

وقد بين الفاروق للرعية أنه قدوة لهم في العمل بالعلم ، فقال في جزء من خطبته : «ولست معلمكم إلا بالعمل»[٥] .

وخطب عمر فقال :«أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَإِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ ، وَهْىَ مِنْ

---

(١) معناه : تعلَّموا الفقه قبل أَن تُزَوَّجوا فتصيروا أَرباب بيوت فَتُشْغَلوا بالزواج عن العلم ، وقيل : تعلموا العلم ما دمتم صِغاراً قبل أَن تصيروا سادَةً رُؤَساءَ ، فإِن لم تَعَلَّموا قبل ذلك استحيتم أَن تَعَلَّموا بعد الكبر فبقِيتم جُهَّالاً تأْخذونه من الأَصاغر فيزري ذلك بكم . لسان العرب (٣/ ٢٢٤) .

(٢) كنز العمال ، رقم ٢٩٣٤٦ ، وعزاه إلى الدارمي ، وأبو عبيد في الغريب ، ونصر في الحجة .

(٣) فتح الباري (١/ ١٦٦) .

(٤) كنز العمال ، رقم ٢٩٣٤٤ ، وعزاه إلى : مسدد ، وجعفر الفريابي في صفة المنافق .

(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٥) .

خَمْسَةٍ : مِنَ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ ، وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ ، وَالشَّعِيرِ ، وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ»[١] .

فقد كان الفاروق قادرا على توجيه الرعية توجيها مفيدا وتعليمهم ما يجب عليهم ، فبعد أن تعلم وعمل وعى ووجه .

ومما يدل على اهتمام الفاروق بتعلم العلم والحرص عليه قوله في جزء من خطبته : «وما أصبحت نادما على شيء أكون أحب أن أسأل رسول الله ﷺ عنه إلا وقد سألته»[٢] .

ومن خطب الفاروق التي تحث الرعية على سؤال أهل العلم إذا لم يعلموا؛ أنه ﷺ «خطب الناس بالجابية فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله تعالى جعلني له خازنا وقاسما»[٣] .

وقد ورد عن الإمام علي ﷺ أنه كان يحث على العلم والعمل به وكان هو قدوة لهم في ذلك ، فقد قال في خطبة له : «تعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث ، وتفقهوا في الدين فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص ، وإذا قرئ عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ، وإذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون ، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذي لا يستقيم عن جهله ، بل قد رأيت أن الحجة أعظم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، ك تفسير القرآن ، باب قوله إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، رقم (٤٦١٩) ، ومسلم في صحيحه ، ك التفسير ، باب في نزول تحريم الخمر ، رقم (٣٠٣٢) .

(٢) كنز العمال ، رقم ١٤١٨٤ ، وعزاه إلى : أبو حسين بن بشران في فوائده ، وأبو أحمد الدهقان في الثاني من حديثه ، واللالكائي .

(٣) سنن البيهقي الكبرى ، ك الفرائض ، باب ترجيح قول زيد بن ثابت على قول غيره من الصحابة في علم الفرائض ، (٦/ ٢١٠) رقم ١١٩٦٩ .

والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه على هذا الجاهل المتحير في جهله ، وكلاهما مضلل مثبور»[١] .

وقال ﷺ :«تعلموا العلم تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله ، فإنه يأتي من بعدكم زمان ينكر فيه من الحق تسعة أعشاره ، وإنه لا ينجو منه إلا كل أواب منيب ، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم»[٢] .

وقيل لعلي ﷺ : يا أمير المؤمنين ، إن هاهنا قوما يقولون : إن الله تعالى لا يعلم ما يكون حتى يكون فقال : ثكلتهم أمهاتهم من أين قالوا هذا؟ قيل : يتأولون القرآن في قوله : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١] ، فقال علي : من لم يعلم هلك . ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :«يا أيها الناس تعلموا العلم واعملوا به وعلموه ، ومن أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسألني ، بلغني أن قوما يقولون : إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون لقوله : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ وإنما قوله تعالى حتى نعلم يقول : حتى نرى من كتب عليه الجهاد والصبر ، إن جاهد وصبر على ما نابه وأتاه مما قضيت عليه»[٣] . وقوله : ومن أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسألني ، دليل على أنه كان من أعلم الصحابة .

وقد حَصَّل الإمام علي ﷺ علم كثير في القرآن وعلومه فقال عن نفسه :«والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت ، إن ربي وهب لي قلبا عقولا ، ولسانا طلقا سؤولا»[٤] .

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٤١) .

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٧) .

(٣) كنز العمال ، رقم ٤٦٠٢ ، وعزاه إلى ابن عبد البر في العلم .

(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٨) .

وكان الإمام علي ﷺ يرى أن العالم لا يسمى عالما حتى يعمل بعلمه ، لذلك كان يخاطب حملة العلم قائلا :«يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ اعْمَلُوا بِهِ فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ وَتُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلاَنِيَتَهُمْ يَجْلِسُونَ حِلَقاً فَيُبَاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ وَيَدَعَهُ أُولَئِكَ لاَ تَصْعَدُ أَعْمَالُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ تِلْكَ إِلَى الله»[١] .

وكان الإمام يتعهد الرعية ببذل جهده في نشر دين الإسلام وتوجيههم وتعليمهم وتربيتهم من خلال الاحتكاك اليومي وخصوصا يوم الجمعة ، حيث كانت خطبة الجمعة من المنابر المهمة في توجيه الرعية ، وقد حفظ التاريخ للإمام علي كثيرا من خطبه في هذا الباب .

وكان ﷺ يحرص على بذل العلم لصحابته ، وكان يقول لأصحابه :«ألا رجل يسأل فينتفع وينتفع جلساؤه»[٢] .«سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم جبل»[٣] .

وقال سعيد بن المسيب :«لم يكن أحد من الصحابة يقول : سلوني إلا علي بن أبي طالب»[٤] . ونادى علي على المنبر فقال : سلوني . فقال رجل : أتوتى النساء في أدبارهن؟ فقال : سفلت سفل الله بك ، ألم تر أن الله تعالى يقول : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠][٥] .

---

(١) سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، (١/ ١١٨) رقم ٣٨٢ ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط الأولى ، تحقيق فواز أحمد ، خالد السبع .

(٢) مصنف ابن أبي شيبه (٥/ ٣١٢) رقم ٢٦٤١٩ .

(٣) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، ابن حجر الهيتمي (٢/ ٣٧٥) ، دار الكتب العلمية .

(٤) المرجع السابق (٢/ ٣٧٥) .

(٥) سنن البيهقي الكبرى (٧/ ١٩٨) رقم ١٣٩٠٥ ، مصنف بن أبي شيبه (٣/ ٥٣٠) رقم ١٦٨١٢ .

هذه أقوال الخلفاء يظهر منها اهتمامهم بالعلم والتعليم ، والعمل بالعلم ، وبذل الجهد في نشره . أما إذا تأملنا في سيرتهم العملية فنجد أنهم كانوا يحرصون على ذلك أيضا . فالدارس لحياة الصديق الخليفة الأول لرسول الله ﷺ يجد أنه قد حرص على تعلم العلم والعمل به والدعوة إليه ، وقد توفرت لديه المقومات العلمية ، وكانت صورة مشرقة للحاكم المسلم مما يجعله مثالا طيبا وقدوة صالحة لكل حاكم بعده أراد أن يتأسى به .

أما عن اهتمام الصديق بالعلم فقد اهتم به ، وقد لازم النبي ﷺ حضرا وسفرا يتعلم منه العلم ، ولم يفارق النبي ﷺ حتى توفاه الله حتى صار من أعلم الصحابة .

وقد اهتم الصديق بتعلم العلم فحفظ القرآن الكريم وفهم معانيه ، فقد كان يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه التفسير . قال النووي رحمه الله :«الصديق أحد الذين حفظوا القرآن كله»[(١)] .

وتقديم النبي ﷺ له أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وهو دليل على أنه أعلم الصحابة وأقرؤهم ، لما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء أن رسول الله ﷺ قال : « **يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً ، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا ، وَلاَ تَؤُمَّنَّ الرَّجُلَ فِي أَهْلِهِ وَلاَ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلاَ تَجْلِسْ عَلَى تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلاَّ أَنْ يَأْذَنَ لَكَ أَوْ بِإِذْنِهِ**»[(٢)] .

وكان الصديق أعلم الصحابة بالسنة[(٣)] ، فكلما رجع إليه الصحابة في غير

---

(١) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، (١/ ٢٤٥) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، ك المساجد ومواضع الصلاة ، باب من أحق بالإمامة ، رقم (٦٧٣) .

(٣) وربما يتبادر إلى الذهن سؤال إن كان الصديق من أعلم الصحابة فلماذا لم يروا عنه أحاديث كثيرة كغيره من الصحابة الذين اشتهروا في نقل الحديث؟ والجواب هو :«إنما لم يرو عنه من الأحاديث المسندة إلا القليل لقصر مدته وسرعة وفاته بعد النبي × ، وإلا فلو طالت مدته لكثر ذلك عنه جدا ، ولم يترك الناقلون عنه حديثا إلا نقلوه ، ولكن كان الذين في زمانه من الصحابة لا يحتاج أحد منهم=

موضع يبرز عليهم بنقل سنة عن النبي ﷺ يحفظها هو ويستحضرها عند الحاجة إليها وليست عندهم ، وكيف لا يكون كذلك وقد واظب على صحبة النبي ﷺ من أول البعثة إلى الوفاة .

ومن خلال ما سبق يتبين اهتمام الصديق بتعلم العلم حتى صار أعلم الصحابة وأفقههم لمراد رسول الله ﷺ ، ثم بعد أن تعلم العلم عمل به ، هذا الخلق الحميد تحلى به الصديق ، وقد حرص على تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ ، واجتهد في العمل بالعلم ، فقد كان سباقًا للخيرات حريصًا عليها ، حريصًا على العمل بما علم . فقد قال النبي ﷺ ذات يوم : «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**» ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا . قَالَ : «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**» ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا . قَالَ : «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**» ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . قَالَ : «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**» ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١) .

وروي أنه :«ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق ﷺ فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه . فقالوا له : أفلا أمرتنا نناولكه؟ فقال : إن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئا»(٢) .

والروايات في هذا الباب كثيرة ، ويتضح مما ذكرته أن الصديق كان عاملا بعلمه «وعلى الرغم من قصر مدة خلافة الصديق إذ لم تزد على سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، إلا أنها كانت مليئة بالأعمال الجليلة التي تحتاج إلى السنوات الطوال لإنجازها ، ولترسيخ معاني الإسلام في قلوب أبنائه إلا أن تطبيقه العملي وإصراره على ما اعتقد .

. . . . . .

= أن ينقل عنه ما قد شاركه هو في روايته ، فكانوا ينقلون عنه ما ليس عندهم» . الصواعق المحرقة (١/ ٤٨) .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، ك فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر ، رقم (١٢٠٨) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ١١) رقم ٦٥ ، وقال شعيب الأرنؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف ، عبدالله بن المؤمل ضعيف .

كل ذلك كان يدل على وعي تام بالإسلام وعزيمة ثابتة راسخة كالجبال بالإيمان ، وهذه الأمور هي التي رسخت دعائم وأثبتت المفاهيم ، وكان بعيد النظر في الأمور كلها ، واسع الأفق»[١] .

أما الفارق فقد كان مثل صاحبه يحرص على تعلم العلم من رسول الله ﷺ ليكون على بصيرة بأمر دينه ، وحتى يحصل الفاروق العلم من النبي ﷺ أكثر من ملازمته وأكثر من سؤاله وأتقن ذلك .

وقد ضرب الفاروق مثالا رائعا في حرصه على طلب العلم والهمة العالية في تحصيله ، فقد قال :«كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك»[٢] .

أما عن سؤاله للنبي ﷺ فقد سأله كثيرا ، وهذا يدل على حرصه على تعلم العلم . أذكر واحدة منها : فقد سأل رسول الله في القدر فقال :«يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع أو مبتدأ أو أمر قد فرغ منه؟ قال : أمر قد فرغ منه ، فاعمل يا بن الخطاب فإن كلا ميسر ، فأما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء»[٣] .

وهكذا يتضح حرص الفاروق على تعلم العلم والتفقه على يد رسول الله ﷺ حتى أصبح من أعلم الصحابة بعد أبي بكر ، ومما يدل على حرص الفاروق على تعلم وتعليم ونشر العلم ما روي :«جاء رجل من اليهود إلى عمر رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم

---

(١) التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر (٣/ ٦١) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، ك النكاح ، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ، رقم (٨٩) .

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٧٧) رقم ٥٤٨١ . وقال شعيب الأرنؤوط : حسن لغيره .

عيدا ، قال : وأي آية هي؟ قال : قوله ﷻ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ، قال : فقال عمر ﷺ : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها ، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة[١] . ثم بعد تعلم العلم والعمل به كان الفاروق يتعاهد الرعية بالتوجيه والتعليم والتربية من خلال الاحتكاك اليومي ، وخاصة يوم الجمعة وقد حفظ لنا التاريخ كثيرا من خطب الفاروق .

وقد أصبح الفاروق في مقدمة الفقهاء من الصحابة ، وقد أفرد العلماء فقه الفاروق بالتأليف والجمع[٢] . وأفرد بعضهم أوليات الفاروق ، أي : ما أنفرد به الفاروق دون غيره بناءً على علمه وفهمه . ولقد أصبح الفاروق فقيه المسلمين بعد أن آلت إليه الخلافة . وقد شهدت الأمة للفاروق بغزارة العلم وبأنه فقيه من فقهاء الأمة في الصدر الأول . وقد تتبع الفاروق رعيته بالتوجيه والتعليم ، وأنشأ في المدينة دارا لتعلم العلم وتخريج الدعاة والولاة والقضاة[٣] .

وقد كان عثمان ﷺ مثل صاحبيه يهتم بتعليم العلم والعمل به ونشره ، وكان صاحب قدرة عالية على التوجيه والتعليم . وقد لازم أمير المؤمنين عثمان رسول الله ﷺ وتعلم منه العلم حتى كان من كبار علماء الصحابة وفقهائهم . ومما يدل على ذلك ما تركه من اجتهادات فقهية في المجال القضائي ، والمالي ، والجهادي ، فقد ترك الخليفة الراشد أحكاما فقهية في مجال القصاص ، والجنايات ، والحدود ،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، ك زيادة الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه ، رقم (٤٥) .

(٢) منهم : د/ رويعي بن راجح في مؤلفه فقه عمر بن الخطاب ، إصدار معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى مكة المكرمة .

(٣) من أراد الاستزادة في معرفة الدار التي أنشأها الفاروق في المدينة ونشاط هذه الدار فليراجع في ذلك : المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٤٥ وما بعدها) . والمدينة المنورة فجر الإسلام والعصر الراشد (٢/ ٤٧ وما بعدها) .

والتعزير ، والعبادات ، والمعاملات ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على علم عثمان . وقد أفرد بعض فقه عثمان بالتأليف والجمع[١] . ذكر فيه ما تركه الخليفة الراشد من أحكام فقهية في جميع المجالات ، وهذه الاجتهادات كان لها أكبر الأثر في المؤسسة القضائية ، وساهمت في تطوير المدارس الفقهية الإسلامية باجتهادات أمير المؤمنين عثمان ﷺ ، وهي تدل على سعة إطلاعه وغزارة علمه وعمق فهمه واستيعابه لمقاصد الشريعة الغراء .

وإن كان الخليفة عثمان ﷺ حريصا على تعلم العلم حتى صار من فقهاء الصحابة فإنه كان حريصا على العمل به ، يستجيب لأمر الله وأمر رسوله ويسير وفق منهج الله عز وجل . فقد قال عن نفسه :«أما بعد : فإن الله بعث محمدا ﷺ بالحق ، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله ، وآمنت بما بعث به ، وهاجرت الهجرتين كما قلت ، وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته ، فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله ﷻ»[٢] .

وقد كان علي ﷺ يحرص على تعلم العلم والعمل به وتعليمه . فكان يحرص على الاجتهاد في تحصيل العلم والتحري في قبوله وببذل السؤال في طلبه . ومما يدل على ذلك قوله :«ما دخل نوم عيني ولا غمض رأسي على عهد رسول الله ﷺ حتى علمت ذلك اليوم ما نزل به جبريل من حلال أو سنة أو كتاب أو أمر أو نهي ، وفيمن نزل»[٣] . وقال أيضا :«لما قبض رسول الله ﷺ أقسمت أو حلفت ألّا أضع ردائي عن ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين ، فما وضعت ردائي عن ظهري حتى

---

(١) ممن أفرد فقه عثمان بالتأليف : د/ محمد رواس قلعجي ، في مؤلفه : موسوعة فقه عثمان ، دار النفائس ، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، ك فضائل الصحابة ، باب مناقب عثمان ، رقم (٣٦٩٦) .

(٣) مسند الإمام زيد بن علي ، جمع عبد العزيز بن إسحاق البغدادي ، صـ ٣٤٣ ، دار الكتب العلمية ، ط الثانية/ ١٤٠٣هـ .

جمعت القرآن»[١] .

وقد كان من أحرص الناس على تطبيق ما يسمعه من رسول الله ﷺ حيث يقول كما مر :«كنت رجلا إذا سمعت رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني»[٢] . والانتفاع لا يكون إلا بتطبيق ما علم والعمل بمضمونها .

ومما يدل على عمل علي ﷺ بما عمل أنه في أصعب المواقف طبق ما تعلمه من رسول الله ﷺ ، حيث علمه النبي ﷺ هو وفاطمة زوجة علي وبنت النبي ﷺ دعاء ما قبل النوم ، حيث قالا لهما رسول الله ﷺ : «**أَلاَ أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ ، وَتَحْمَدَاهُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**» . قَالَ عَلِيٌّ : مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قِيلَ لَهُ وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قَالَ : وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينِ[٣] .

هذه بعض الصفات التي تحلى بها الخلفاء ، وهي محل قدوة وأسوة لقادة المسلمين وعوامهم لمن أراد أن يسير على دربهم ويقتدي بهم ، خطوة على طريق الإصلاح الذي ينشده كل غيور على الإسلام في هذا الزمان . فمن أسباب التمكين لهذا الدين في الأرض العمل على إيجاد قادة ربانين جرى الإيمان في قلوبهم وانعكست ثماره على جوارحهم ، وتفجرت صفات التقوى في أعمالهم وسكناتهم وأحوالهم .

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٦٧) ، الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٨) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢) رقم ٢ . والترمذي في سننه ، ك الصلاة ، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة ، (٢/ ٢٥٧) رقم ٤٠٦ ، وأبو داود في سننه ، ك الصلاة ، باب في الاستغفار ، (١/ ٤٧٥) رقم ١٥٢١ . وقال الترمذي حديث حسن .

(٣) ليلة صفين : أي ليلة الحرب التي كانت بين علي ومعاوية و رضي الله عنهما وهو : موضع بين العراق والشام بقرب الفرات من الجانب الغربي . والحديث رواه البخاري في صحيحه ، ك النفقات ، باب خادم امرأة ، رقم (٥٣٦٢) . ومسلم في صحيحه ، ك الذكر والدعاء ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ، رقم (٢٧٢٧) .

٥ـ تقديم الخلفاء قدوة للحاكم المسلم في ضوء سياستهم مع أهليهم :

ساس الخلفاء أهليهم سياسة تجعلهم أسوة صالحة يرى فيها الناس ما ينبغي أن يكون في بيت الحاكم المسلم من التقوى والعلم ، والتواضع والصبر ، والعيش الحسن والحفاظ على مال الرعية ، والتحري في طلب الحلال .

وعلم الخلفاء أن الرعية تنظر إلى أهل الخليفة ويتتبعون ما يفعلون ، وأدركوا أنهم أصبحوا قدوة للرعية ، فساسوهم سياسة تجعلهم قدوة حسنة للرعية . وقد ضرب الخلفاء أروع الأمثلة في ذلك حتى يعلم الحكام كيف يجعلون بيوتهم دعوة إلى الإسلام بحالها قبل مقالها .

ومما يدل على ذلك خطبة للفاروق ينهى فيها أهله عن الوقوع في المعاصي ويحثهم على الاستقامة على دين الله عز وجل وتطبيق الإسلام في واقع حياتهم . فعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب خرج فقعد على المنبر فثاب «تجمع» الناس إليه حتى سمع به أهل العالية[١] فنزلوا ، فَعَلمَهُم حتى ما بقي وجه إلا عَلَمَهُ ، ثم أتى أهله وقال : قد سمعتم ما نهيت عنه ، وإني لا أعرف أن أحدا منكم يأتي شيئا مما نهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب ضعفين»[٢] .

وكان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال :«لا أعلمن أحدا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة»[٣] . وكان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال :«إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير يعني إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة»[٤] .

---

(١) العالية والعوالي : هي أماكن بأعلى أراضي المدينة ، وأدناها من المدينة على أربعة أميال . النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٤٠٩) .

(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٨٩) .

(٣) المرجع السابق (٣/ ٢٨٩) .

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٥٦٨) .

«فكان عمر إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله ، وتقدم إليهم بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره»[١] . وفي رواية قال فيها الفاروق لأهله :«إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير يعني إلى اللحم ، فإن وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني ، فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر[٢] . فالفاروق كان إذا نهى الناس عن شيء بدأ بأهله ليكونوا قدوة للرعية .

وقد علم الفاروق أهله أنهم والرعية سواء في المعيشة وفي كل شيء ، وتلك هي المساواة بين الحاكم وبين المحكوم . فقال في خطبة له : «إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا[٣] في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم ، ولست معلمكم إلا بالعمل ، إني والله لست بملك فاستعبدكم ، ولكني عبد الله عرض على الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت بكم ، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتي شقيت بكم ، ففرحت قليلا وحزنت طويلا ، فبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب»[٤] .

هذا قول الخلفاء أما عن سيرتهم العملية وسياستهم مع أهليهم فكانت قائمة على ما يلي :

فالصديق ساس أهله وحرص على تربية أهله تربية صالحة ، فنشر جو الدعوة

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٦٨) .

(٢) مناقب عمر لابن الجوزي صـ ٢٦٧ .

(٣) المواساة : المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق . النهاية في غريب الحديث (١ / ٦٢) . والمعنى : أي : تشاركنا في المعاش والرزق .

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٥) .

بين أهله ، ورباهم على حب هذا الدين والتضحية من أجله بكل غال ونفيس . رباهم على حب الإسلام والتمسك به والإخلاص له ، وقد كان لأبناء الصديق ذكورا وإناثا دور عظيم في خدمة الدعوة الإسلامية ، فكان لعبد الله وعبد الرحمن وعائشة وأسماء بل لمولاه عامر بن فهيرة دور عظيم في خدمة الدعوة سواء كان في حال خلافة الصديق أم قبل خلافته أو بعدها .

فالحاكم والداعية لابد من أن يدركا أنهما إذا عملا لتطبيق الإسلام على الرعية وتربية الأجيال على الإسلام ، فلابد أن يبدآ بأهليهم وبيوتهم أولا؛ ليكونوا قدوة لمن يدعونهم ، لأن بيت الحاكم والداعية مطمع أنظار الناس ومحل قدوتهم . من أجل ذلك حرص الصديق على نشر جو الدعوة في منزلة ، وتربية أبناءه على حب هذا الدين والتضحية من أجله بكل غال ونفيس .

وقد ربى الصديق ﷺ أبناءه على التمسك بالإسلام وأخلاقه السامية والبعد عن مساوئ الأخلاق فها هو يوصي أحد أبنائه قائلا له :«لا تماظ[1] جارك ، فإن هذا يبقى ويذهب الناس»[2] . ويربي الصديق ﷺ أبناءه على الورع والخوف من الله وعلى التعفف عن المال العام . يترك الصديق تجارته ويتخلى عن كسبه اشتغالا بأمور المسلمين وقياما بوظائف الخلافة فيضطر إلى أخذ نفقة من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة إلى سد الجوع وستر العورة ، وهذه النفقة تفرض له من قبل أهل الحل والعقد في دولته ، وهي نفقة معلومة معروفة ، ثم هو يؤدي للمسلمين خدمة لهم مقابل هذه النفقة ، ولما أشرف على الموت وعنده فضلة من مال المسلمين يأمر أهله بردها إلى المسلمين ليلقى ربه آمنا مطمئنا ، نزيه القلب ، طاهر النفس ، خفيف

---

(١) أي لا تنازعه . والمماظة : شدة المنازعة والمخاصمة ، مع طول اللزوم . النهاية في غريب الحديث (٨/ ٣٧) .

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٥١) .

الحمل إلا من التقوى ، فارغ اليدين إلا من الإيمان[١] . إنها التربية بالقدوة لأبنائه ليتعلموا من أبيهم التقوى والورع .

أما عمر ﷺ فقد علم أن الناس ينظرون إليه ويتتبعون أفعاله ، وأن الأبصار مشرئبة نحوه ، وأنه لا جدوى إن قسا على نفسه ورتع أهله فحوسب عنهم في الآخرة ، وعلم أن الراعي إذا رتع رتعت رعيته لذلك كان يقول :«إن الناس ليؤدون إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله ، وإن الإمام إذا رتع رتعت رعيته»[٢] .

وقد كان الفاروق ﷺ شديد المراقبة والمتابعة لتصرفات أهله ، وحملهم على تطبيق تعاليم الإسلام في واقع حياتهم . ومن المواقف التي تدل على أن الفاروق كان يتابع تصرفات أهله ويحملهم على تطبيق الإسلام قولا وعملا ما يلي :

كان الفاروق يمنع أهله من الاستفادة من المرافق العامة التي رصدتها الدولة لفئة من الناس خوفا من أن يحابي أهله في ذلك ، فعن معيقيب قال :«أرسل إلي عمر مع الظهيرة فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصما ، فقال لي : أتدري ما صنع هذا؟ إنه انطلق إلى العراق فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين فانتفقهم –سألهم النفقة– فأعطوه آنية وفضة ومتاعا وسيفا محلى . فقال عاصم : ما فعلت ، إنما قدمت على أناس من قومي فأعطوني هذا . فقال عمر : خذه يا معيقيب فاجعله في بيت المال»[٣] . إنه تحري من الفاروق أن يكتسب ابنه المال عن طريق جاه أبيه وسلطانه فيدخل ذلك في مجال الشبهات . والقصص في هذا المعنى كثير .

وكانت سياسة الفاروق ﷺ مع أبنائه الرحمة بهم صغارا والشفقة وإدخال

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ، رفيق العظم ، (١/ ٩٤) بتصرف ، دار الرائد العربي بيروت ، ط السادسة/ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

(٢) موسوعة فقه عمر صـ ١٤٦ .

(٣) عصر الخلافة الراشدة د/ أكرم ضياء العمري صـ ٢٣٦ ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ط الأولى/ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

السرور عليهم روي أنه :«استعمل رجلا من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده ، فأتي عمر ببعض ولده فقبله ، فقال الأسدي : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ والله ما قبلت ولدا قط . قال عمر : فأنت والله بالناس أقل رحمة ، هات عهدنا لا تعمل لي عملا أبدا . فرد عهده»[١] .

وكان من سياسة عمر رضي الله عنه مع أهله أن يمنعهم من قبول الهدايا حتى لا تكون مدخلا إلى شبهة حرام ، وحتى لا تكون دليلا لاستدلال الأمراء والعمال على صحتها ، لأن الخليفة وأهله قبلوه ، لذا منعها الفاروق منعا باتا عن أهله واشتد في زجر من فعلها .«لما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسير إليه عمر رضي الله عنه الرسل مع البريد ، بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش[٢] من أحفاش النساء ودسته إلى البريد ، فأبلغه لها وأخذ منه ، وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها ، وقالت : هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وكافأتها وأهدت لها ، وفيما أهدت لها عقد فاخر ، فلما انتهى به البريد إليه أمره بإمساكه ، ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين ، وقال :«إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري ، قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم» فقال قائلون : هو لها بالذي لها ، وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك ، وقال آخرون : قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب ثمنا ، فقال رضي الله عنه : ولكن الرسول رسول المسلمين ، والبريد بريدهم ، والمسلمون عظموها في صدرها ، فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها»[٣] .

---

(١) كنز العمال (٥/ ٧٦٧) ، رقم ١٤٣٢٦ ، وعزاه إلى هناد .

(٢) الحِفْش وِعَاءُ المَغازِل الليث الحِفْش ما كان من أَسْقاطِ الأَواني الَّتي تكُون أَوعِيَةً في البَيْت للطِّيب ونحوه . لسان العرب (٦/ ٢٨٦) .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٦٠١) .

ومن خلال حياة الفاروق مع أسرته وأهله يظهر لنا معلم من معالم الفاروق في ممارسة منصب الخلافة ، وهي القدوة الحسنة في حياته الخاصة والعامة ، حتى قال علي بن أبي طالب :«عففت فعفت رعيتك ، ولو رتعت لرتعوا ، وكان الالتزام بما يدعوا إليه ومحاسبة الفاروق ﷺ نفسه وأهل بيته أكثر مما يحاسب به ولاته وعماله الأثر الأكبر في زيادة هيبته في النفوس وتصديق الخاصة والعامة له حتى بلغ الذروة في القدوة والدعوة العملية للرعية»[١] .

أما سياسة عثمان ﷺ مع أهله فقد برز فيها جانبا مهما هو معاقبة أهله إذا انتهكوا حرمة من حرمات الله ، وتطبيق الشريعة الإسلامية على أهله وعلى الناس أجمعين . فعن حُضَيْنُ بْنُ الْمُنْذِرِ قَالَ : شَهِدْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ وَأُتِيَ بِالْوَلِيدِ قَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : أَزِيدُكُمْ فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا حُمْرَانُ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ ، وَشَهِدَ آخَرُ أَنَّهُ رَآهُ يَتَقَيَّأُ ، فَقَالَ عُثْمَانُ : إِنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّأْ حَتَّى شَرِبَهَا ، فَقَالَ : يَا عَلِيُّ قُمْ فَاجْلِدْهُ . فَقَالَ عَلِيٌّ قُمْ يَا حَسَنُ فَاجْلِدْهُ . فَقَالَ الْحَسَنُ . . . . يَا عَبْدَ اللهِّ بْنَ جَعْفَرٍ قُمْ فَاجْلِدْهُ . فَجَلَدَهُ وَعَلِيٌّ يَعُدُّ حَتَّى بَلَغَ أَرْبَعِينَ فَقَالَ أَمْسِكْ . ثُمَّ قَالَ جَلَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعِينَ ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ ، وَعُمَرُ ثَمَانِينَ ، وَكُلٌّ سُنَّةٌ وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ»[٢] . «فالوليد بن عقبه أخوه لأمه ومع ذلك ينفذ عليه شرع الله وحدًّا من حدوده ويقيم عليه الحد»[٣] .

أما علي ﷺ فقد ساس أهله سياسة تجعلهم أسوة صالحة للرعية ، وقد ألزم الإمام علي ﷺ نفسه بحسن الخلق مع أهله ، ففي خلقه مع أهله وعدله بين نسائه . يروى أن عليا ﷺ كان له امرأتان ، فكان إذا كان يوم هذه اشترى لحما بنصف درهم ، وإذا كان يوم هذه اشترى لحما بنصف درهم[٤] .

---

(١) القيادة والتغيير صـ ١٨٢ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، ك الحدود ، باب حد الخمر ، رقم (١٧٠٧) .

(٣) ولاية الشرطة في الإسلام صـ ١٠٥ .

(٤) الزهد لابن حنبل (١/ ١٣١) .

وقد أوصى الإمام علي ﷺ ولده الحسن والحسين بوصية حثهما فيها على جملة من الصفات الجميلة والأخلاق الحميدة ليكونوا قدوة للرعية ، فقال لهما :«أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوي عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم» . ثم نظر إلى محمد ابن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال : نعم . قال : فإني أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ، ولا تقطع أمرا دونهما ، ثم قال : أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه . وقال للحسن :«أوصيك أي بني بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة ، وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عند الجهل ، والتفقه في الدين ، والتثبت في الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واجتناب الفواحش»[(١)] .

وكان من سياسة الإمام علي ﷺ مع أهله أنه حثهم على الإحسان حتى ولو ظلموا أو جهل عليهم ، علمهم بالقول وبالقدوة العملية . طعن عبد الرحمن بن ملجم عليا ﷺ فأمر بنيه أن يحسنوا إليه ويطيبوا مطعمه ومشربه وألا يمثلوا به . فقال لهم :«إنه أسير فأحسنوا نزله وأكرموا مثواه ، فإن بقيت قتلت أو عفوت ، وإن مت فاقتلوه قتلي ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»[(٢)] .

لقد وسع أمير المؤمنين أشد الناس عداوة له وأشهدهم حقدا عليه ، ومع ذلك يوصي ولده بحسن الخلق معه بأن يحسنوا إليه ويطيبوا مطعمه ومشربه وألا يمثلوا به .

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٥٧)(١٥٨) .

(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٥) .

فجدير بكل حاكم موفق وداعية يريد النجاح في دعوته ، ومسلم يريد نجاح أبنائه في حياتهم ، دراسة سياسة الخلفاء دراسة متأنية يأخذوا منها القدوة في كيفية سياسة أهليهم ومعاملتهم ، فقد عرف هؤلاء الأهل بسبب تلك السياسة الناجحة من الخلفاء مهمتهم في حمل الإسلام عملا به ، ودعوة إليه ، وتمسكا بسلوكياته وأخلاقه .

*****

ثانيا : مميزات الحاكم من خلال خطب الخلفاء

لابد من شروط يجب أن تتوفر فيمن يعين خليفة أو حاكما للمسلمين ، ولابد أن يكون مؤهلا بمؤهلات تؤهله إلى أن يعتلي هذه المكانة العظيمة ، وذلك لخطورة منصبه وعظم مهمته ، فالحاكم أو خليفة المسلمين مهمته هي :«حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة هذا الدين وسياسة الدنيا به»[١] .

«فالله جلت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة وحاط به الملة ، وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع ، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع ، فكانت الإمامة أصلا عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح العامة حتى استتبت به الأمور العامة ، وصدرت عنه الولايات الخاصة»[٢] .

فالخليفة يتبوأ منصب الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية الذي يمتد سلطانه على كافة الأمة بعد رسول الله ﷺ[٣] . وحتى يحقق مهمته هذه فلابد أن يتوفر فيه شروط لتولي هذا المنصب .

والمتأمل في أقوال الخلفاء يجد أنهم قد وضحوا هذا الأمر . فهذا الصديق قد بين في خطبة له الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى الخلافة بعده .

لما مرض الصديق وأحس بقرب أجله جمع الناس فقال لهم :«إنه قد نزل ما ترون ، ولا أظنني إلا ميت لما بي ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم

---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ١٩١ .

(٢) الأحكام السلطانية صـ٣ .

(٣) النظام السياسي في الإسلام د/ غلوش صـ ١٨٩، ١٩٠ بتصرف .

عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي ، فقاموا في ذلك وخلوا عليه ، فلم تستقم لهم ، فرجعوا فقالوا : رأينا يا خليفة رسول الله رأيك . قال : فلعلكم تختلفون . قالوا لا . قال : فعليكم عهد الله على الرضا . قالوا نعم . قال : فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده . فأرسل أبو بكر إلى عثمان فقال : أشر علي برجل فوالله إنك عندي لها أهل وموضع . فقال : عمر . فقال الصديق : اكتب ، فكتب حتى انتهى إلى الاسم فغشي عليه ثم أفاق . فقال : اكتب عمر»[(١)] . وجمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر ، فكانت آخر خطبة خطبها أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال :«يا أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فإنها غرارة ، وآثروا الآخرة على الدنيا فأحبوها ، فبحب كل واحدة منها تبغض الأخرى . وإن هذا الأمر الذي هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، فلا يحمله إلا أفضلكم مقدرة ، وأملككم لنفسه ، أشدكم في حال الشدة ، وأسلسكم في حال اللين ، وأعلمكم برأي ذوي الرأي ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزن لما ينزل به ، ولا يستحي من التعلم ، ولا يتحير عند البديهة ، قويٌّ على الأمور ، لا يخور بشيء منها حده بعدوان ولا تقصير ، يرصد لما هو آت ، عتاده من الحذر والطاعة ، وهو عمر بن الخطاب[(٢)] .

وقال الفاروق في جزء من خطبة له : «وإن الله ﷻ قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومطلع على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله»[(٣)] .

---

(١) كنز العمال (٥/ ٦٨٠) رقم ١٤١٨١ .

(٢) كنز العمال (٥/ ٦٨١) رقم ١٤١٨٣ ، وعزاه إلى ابن عساكر .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٥٧٣) .

وقال أيضا في جزء من خطبة له بعد أن :«حمد الله أثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي ، وخُلِّفتُ فيكم بعد صاحبي ، فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ، ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة ، فمن يحسن نزده حسنا ، ومن يسيء نعاقبه ، ويغفر الله لنا ولك«[1] .

ومن خلال ما سبق أن من أهم مميزات الحاكم المسلم ما يلي :

١- قوة اليقين والرضا والخوف من الله .

٢- الكفاءة العلمية .

٣- الخبرة الإدارية .

٤- الشدة في موضع الشدة .

٥- أن يهتم بمعالى الأمور .

٦- اللين في موضع اللين .

٧- الاهتمام بأحوال الأمة ومتابعة أحوال الرعية والقيام على شؤونهم .

*****

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٧٤) ، كنز العمال ، رقم ١٤١٨٥ .